

تقارير (١)

ظاهرة التدين الجديد

وأثره في تمرير ثقافة التغريب

إعداد
أنور قاسم الخضري



هذا التقرير محاولة جادة وهادفة في رصد ظاهرة اجتماعية ودينيّة جديدة لها تأثيرها في الفكر والسلوك العام في المجتمع الإسلامي، وهي ظاهرة "التدين الجديد" المنبثقة عما يسمى بالدعاة الجدد.

وليس المقصود من هذا التقرير التخندق (ضد أو مع)، بل المقصود هو مشاركة الجميع ومدارسة المنتسبين لهذه الظاهرة ابتداءً في صوابية الرؤية، ومن ثمّ صوابية التعامل الميداني وفقاً لهذه الرؤية، حتى لا تكرس هذه الظاهرة خطاً جديداً في قائمة خطوط الافتراق التي ابتليت بها الأمة.

والمرجعية المعتمدة في دراسة هذه الظاهرة هي الكتاب والسنة، والمحكمات الشرعيّة المتفق عليها بين علماء المسلمين، والاعتضاد بالآثار الواقعية المترتبة عليها، فالصواب ينتج منه الصواب، والخطأ يولد أخطاءً.

الناشر

المملكة العربية السعودية - ص.ب ١٨٧١٨ جدة ٢١٤٢٥
هاتف : ٦٢٨٨٦٨٥ ٢ (٩٦٦+) فاكس : ٢٧١٨٢٣٠ ٢ (٩٦٦+)
www.taseel.org



ظاهرة «التديّن الجديد»
وأثره في تمرير ثقافة التغريب
في مجتمعاتنا!

ظاهرة «التدين الجديد» وأثره في تمرير ثقافة التغريب في مجتمعاتنا!

أنور بن قاسم الخضري

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨ إفرنجي

موضوع الكتاب: فكر إسلامي
تصميم الغلاف: مركز التأصيل
الحجم: ١٤×٢١,٥سم
التجليد: غلاف فاخر
ردمك: ٨ ـ ١٣٥٤ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٨٧
(فهرس مكتبة الملك فهد الوطنية/ الرياض)
رقم الإيداع المحلي: ١٤٢٩/٥٥٥٧

مركز التأصيل للدراسات والبحوث
المملكة العربية السعودية، جدة، طريق الحرمين (الخط السريع)، بجوار كوبري التحلية.
هاتف: ٦٢٨٨٦٨٥ ٢ ٩٦٦ +   ناسوخ: ٢٧١٨٢٣٠ ٢ ٩٦٦ +
ص ب: ١٨٧١٨ جدة ٢١٤٢٥ المملكة العربية السعودية
الموقع الإلكتروني: www.taseel.org.sa
بريد إلكتروني: info@taseel.org.sa

ظاهرة «التديّن الجديد»

وأثره في تمرير ثقافة التغريب في مجتمعاتنا!

بقلم

أنور بن قاسم الخضري

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذا التقرير محاولة جادة وهادفة في رصد ظاهرة اجتماعية ودينية ـ بالدرجة الأولى، لها تأثيرها في الفكر والسلوك العام على المنتسبين لها أو المتأثرين بها، البعض ينظر إليها بنظرة إيجابية مطلقة، وآخرون ينظرون إليها بنظرة سلبية مطلقة، وبين هؤلاء وهؤلاء تأتي النظرة الموضوعية المعتدلة، والتي تفرق بين الإرادات والنوايا والأعمال الظاهرة، وبين (شخصنة) الأمور والتقييم الموضوعي للأفكار والآراء المطروحة، وبين الواقع القائم وما يمكن أن يحدث ويؤول له الأمر.

وليس المقصود من هذه التقرير، التخندق (ضد أو مع)، بل المقصود هو مشاركة الجميع ومدارسة المنتسبين لهذه الظاهرة

(ابتداء) في صوابية الرؤية ومن ثَمَّ صوابية التعامل الميداني وفقاً لهذه الرؤية، حتى لا تكرس هذه الظاهرة خطأً جديداً في قائمة خطوط الافتراق التي ابتليت بها الأمة.

وظاهرة التَّديُّن أرّقت الإنسان منذ القدم، ونالت من فكره ونشاطه وشعوره حيزاً بارزاً وعريضاً عبر المسيرة البشرية، والاهتمام بها لا يُعدُّ اهتماماً ثانوياً أو فلسفياً بعيداً عن الواقع، لأنها من جوهر تركيبة الإنسان وأكثرها تأثيراً على نظرته للكون والحياة والمجتمع الإنساني من حوله.

إن هذا التقرير ـ رغم بساطته ـ لا يحاول الذهاب بعيداً عن الواقع كما هو، ولا يطرح جدلاً لمجرد الإثراء الفكري، بل رُوعِيَ فيه الوضوح والسهولة والقرب لكي يتسنى للقارئ العادي الاستفادة من الموضوع طالما أنه يتمتع بثقافة دينية واجتماعية جيدة.

وأملي من طرح هذا الموضوع أن يكون الجميع من أبناء الإسلام مساهمين فاعلين في عملية «التجديد الديني»، التي منطلقها العلماء، بعيداً عن البدع والمحدثات التي حذر منها رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام. فالتجديد الديني إذا لم يقم على (علماء ربانيين) ومجتمع يقف إلى جانبهم ينحرف عن غايته، فلا قيمة للعلماء بعيداً عن الأمة، ولا قيمة للأمة بعيداً عن العلماء! وهنا يكمن الفرق بين «التجديد الديني» و«التديّن الجديد»!

مقدمة

استطاعت الصحوة الإسلامية خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي فرض نفسها كواقع ملموس في الحياة العامة، والأوساط الاجتماعية المختلفة؛ ذلك أنها خاطبت كافة الشرائح والفئات والنخب، بغض النظر عن مدى مضمون هذا الخطاب وسلامته!!

ونظراً لأن الإنسان متدين بالفطرة، فهناك تيار عام وظاهر اليوم ينحو باتجاه الشخصية المتدينة، بعد أن سادت لفترة من العهود طبيعة اللامبالاة والإعراض والتخلي عن الدين، وذلك تحت وطأة التوجه العلماني الذي عمل على تغييب الخطاب الديني ومحاربته وصدّ الناس عنه.

والقارئ أو المستمع أو المشاهد أو الزائر ـ في العالم العربي والإسلامي ـ لا يخفى عليه مظاهر التدين التي تنتشر في أوساط المجتمع وتلوح على مؤسساته وأنشطته وتعاطيه مع الأحداث... هنا وهناك.

ويبقى من الضروري في ظل هذا الاتساع والانتشار السريع والمتزايد دراسة الظواهر المصاحبة لهذا التوجه (أو التيار) الديني... أو ما اصطلح عليه «الصحوة الإسلامية». وهذه الضرورة لدراسة من هذا النوع تنبع من عدة جوانب:

أولاً: أن توجه الناس نحو التدين يرافقه غالباً جهل بأحكام الدين ومقاصد الشريعة، الأمر الذي قد يوقع البعض في الغلو أو المحدثات أو إضافة شيء إلى العقائد والعبادات والشرائع، وهو ليس منها أصلاً!

وبالتالي فيجب على العلماء والدعاة مواجهة أي خطأ من هذا النوع مع نشوء بوادره، كما كان هديه ﷺ مع أصحابه، فحديث «ذات أنواط»، وحديث الثلاثة نفر الذين سألوا عن عبادة الرسول ﷺ فتقالوها... وغيرها، هي من باب حرص الشارع ألّا تخرج طبيعة التدين الناشئ في النفس البشرية عن حدود الشرع ومقاصد الدين.

ثانياً: أن هناك من شياطين الإنس والجن ـ في كل زمان ومكان ومجتمع ـ من يحاول أن يَحْرِف توجه الناس إلى التدين إلى مسار مخالف، أو منحرف، مع كونه يبدو في مظهره أنه المسار الصحيح؛ وأغلب انحرافات الأمم عن التدين إنما وقعت في بداياتها الأولى بشيء يسير من المخالفات التي لبَّست عليهم

الشياطين فيها، ليصبغوها بصبغة التدين، ثمَّ ما لبث أن صارت طرقاً مضاهية للدين، ولكل طريقة أشياع، ولكل شيعة مطاع!!

ثالثاً: أن التدين في غالبه هو استجابة لخطاب ديني موجه، وبحسب سلامة هذا الخطاب وصحة مضامينه؛ تكون سلامة الأتباع وصحة أعمالهم وأقوالهم ومعتقداتهم.

ونظراً لكثرة الخلاف وتعدد الاجتهادات على مدار أكثر من أربعة عشر قرناً، فإن من الصعب على العامة والجماهير الغفيرة المقبلة على التدين الوصول إلى الرؤية الصحيحة والمناهج الحقة والتغذية المتكاملة والمتزنة والمتدرجة، والتي يصلون بها إلى مراتب الكمال البشري بصوره المختلفة؛ وهذا قد يؤدي بهم إلى الانتقاء والاختيار من «المعروض» وبحسب الرغبة والحاجة، وبالتالي تصنع الجماهير لأنفسها في ظل غياب الخطاب والتوجيه الموحد «تديناً جديداً»، يحمل ملامح غير متجانسة وعناصر غير مترابطة... وهو بدوره قد يشكل وعياً جمعياً ضاغطاً، وأخطر ما فيه أنه غير موجه ولا إرادي، ومع مرور الوقت يربوا فيه الصغير ويهرم فيه الكبير، ويصبح ديناً له مفاهيمه وقيمه وسننه وشرائعه!! فإذا أراد العالِم أن ينكر على أهله قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

التدين بين الجديد والقديم

إن التدين باعتباره جهداً بشرياً في جانب التعاطي مع الدين وتطبيقه في الحياة، يتغير ويتبدل ويتجدد، بحسب أحوال الناس وظروفهم المحيطة ووفرة القائمين بواجب الدعوة والتذكير والإرشاد والتعليم. ومن الطبيعي أن يعتريه نقص أو قصور أو خلل، لأن هذا شأن النفس الإنسانية والمجتمع البشري.

ومن هنا فإن تسمية ما يحدثه الناس في واقعهم الديني بـ«التدين الجديد» أمر لا غبار عليه، وهو من باب الاصطلاح على الظواهر الجديدة؛ والمهم في الأمر هو التوصيف الموضوعي لهذا الاسم بما يتطابق مع واقعه؛ حتى لا تبنى بقية الأحكام بعيداً عن الواقع وحقائق الأمور!

ولست أول من يلتفت إلى هذه الظاهرة ويسميها بهذا الاسم، فهناك من كتب عن «الدعاة الجدد» وآخرون كتبوا عن «المتدينون الجدد»، وهي في مجموعها كتابات تتطرق إلى الظاهرة من رؤى مختلفة! وتحليلات متباعدة!

فماذا نقصد بـ«التدين الجديد»؟!

بداية يجب التذكير بأن التدين تعبير فطري عن مكنون النفس البشرية من الإيمان بالرب الخالق ووجوب الخضوع له تماشياً مع ناموس الكون الكلي. وتَديُّن النفس البشرية ينبع عن جوعة الروح وظمأها لزادها السماوي، لذا فإن أي تدين بشري يتصل بنوعين من التصور، تصور غيبي لما وراء المادة، أو ما يصطلح عليه بالأجسام العلوية وما وراء الطبيعة والأرواح النورانية وغيرها من الألفاظ والأوصاف التي تطلق تعبيراً عن الإيمان بمغيبات في الوجود لها حضورها في عالم الشهادة، وتختلف هذه الألفاظ باختلاف الديانات والثقافات والمذاهب؛ أما التصور الثاني فهو التصور للنهاية البشرية والمستقبل غير المرئي لعالم الروح بعد الموت، وهنا تتنوع مذاهب الأديان الوثنية بشكل متباين، في حين تتفق الأديان السماوية في مبدأ إثبات الحياة البرزخية والأخروية، مع خلاف في التفاصيل وبعض العموميات.

وتَدَيُّن أي فرد يتحدد في الحقيقة في ضوء عدة أمور:

- **الطبيعة والخصائص والصفات النفسية التي يُولد المرء مزوداً بها**، وبغض النظر عمَّا إذا كانت هذه الطبيعة والصفات النفسية تتشكل وفقاً للوراثة أو وفقاً للبيئة أو وفقاً للاثنين معاً. تُعدُّ هذه الطبيعة والصفات جزءاً مؤثراً في طبيعة التدين الذي يميل المرء إليه، فإن الطبيعة الكاذبة تميل إلى النفاق أما الصادقة فتميل إلى التدين الظاهر الصريح، والطبيعة اللينة تميل إلى التدين الهين الرفيق أما الطبيعة المتشددة فإنها تميل إلى التدين الشديد والمتطرف أحياناً، وهكذا فإن كل طبيعة تميل للتدين الذي يلاءم طبعها

ويعطيها حيزاً من الحضور والحركة والبروز! لذا فإن الطبيعة الكسولة لا تؤمن إلا بالجبر لأنه خير من يخدمها!

وهنا نشير أن للنفس البشرية عدة جوانب تتجلى فيها: **جانب عقلي** يتعامل مع المعرفة والمعلومات ومدركات الحواس، وهو يقوم بعمليات مختلفة بغية إعطاء الأحكام على الأمور والمقارنة بينها وقياس التغير فيها. **وجانب عاطفي** (وجداني) يتعامل مع الميول والمشاعر وجماليات الحياة وأقدارها، فهو يدور حول الحب والبغض والحزن والفرح والرهبة والأمن واليأس. **وجانب مادي**، ونقصد به الجسد، وهو نقطة التواصل بين جوانب العقل والعاطفة وبين العالم المحيط، ووضعيته تؤثر سلباً أو إيجاباً في نقل الصورة الحقيقية للواقع للعقل والعاطفة. والشريعة في تكليفها راعت هذه الجوانب المختلفة من النفس البشرية، وهذا يشير إلى تأثير كل جانب من هذه الجوانب في التدين الذي يمكن أن يحققه المرء، **ففي جانب العقل**: هناك الطفل والمميز والبالغ العاقل والمجنون والمتأوِّل، **وفي جانب العاطفة**: هناك الغاضب، والواقع تحت هول الصدمة النفسية تجاه مصيبة، والواقع تحت تأثير الخوف والإكراه، والواقع تحت تأثير الفرح البالغ، **وفي جانب الجسد**: هناك المستطيع والعاجز والمريض والعجوز المسن... وهذه جميعاً حالات لها مراعاتها في أحكام الشريعة وخطاب التكليف.

ـ **الشخصية**: ونقصد بها هنا جانباً أكبر من الطبيعة النفسية (الجانب الجِبِلِّي والخلقي)، فالتربية والثقافة والخبرة عوامل تشارك في تشكيل الشخصية إلى جانب الطبيعة النفسية، وفي ضوء هذه العوامل المحيطة يمكن للطبيعة النفسية أن تتغير أو تتحول أو تزيد،

وأن تأخذ أبعادها في الحياة، ومن ثَمَّ فقد أشار الرسول الكريم ﷺ إلى هذه الأمور في عدة مواطن؛ ففي التربية يخبر عليه الصلاة والسلام بأثر الوالدين بقوله: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**»[١]، وفي جانب البيئة الاجتماعية يشير في حديث (**قاتل المئة نفس**)[٢] إلى هذا المعنى، وفي جانب الثقافة نهى الرسول الكريم في أحاديث عديدة عن مجموعة من المراسيم والأفكار والمصطلحات في ثقافة الفرس والرومان مما قد يتأثر به المسلمون في حياتهم، فنهى أن يقف الصحابة عند رأسه كما يُفعل في عادة الملوك والقياصرة والأكاسرة[٣]، ونهى عن تعليل نزول المطر بظهور الأنواء كما هي عادة الفلكيين، وحذر من تسمية الأمور بغير أسمائها تحايلاً على الشرع، ونهى عن التسمي بـ«شاه شاه»! والاحتفال بغير العيدين الذي سنه لهم!

أما تأثير الخبرة في التدين فإنه عليه الصلاة والسلام استمع إلى نقد يهود عندما عابوا على الصحابة قولهم: «ما شاء الله وشئت»! فقال لأصحابه: «**قولوا: ما شاء الله وحده**»![٤].

ـ **البيئة المحيطة**: وهي هنا ليست فقط الأسرة والمجتمع المحلي، ففي الوقت الراهن وفرَّت وسائل الإعلام والاتصال، ووسائل النقل التي سهلت السفر والتنقل، للناس فرصة الاطلاع على المجتمعات الأخرى بعاداتها وتقاليدها وثقافتها وتدينها، وليس

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) والحديث عند أحمد.

هذا فحسب بل الاختلاط بها وتبادل الحديث معها والاتصال بها بكافة صور الاتصال!

إذن نحن هنا يجب أن نتحدث عن بيئة لا محدودة وغير متناهية وليست متجانسة، وفي ظل غياب معرفة شرعية مؤصلة وتربية إيمانية حيَّة وصفات شخصية تتمتع بالرؤية النقدية الصائبة والقادرة على التمييز والاختيار مع الحفاظ على الهوية المستقلة مع هذا الانفتاح المهول والضاغط يمكن للشخصية أن تذوب أو تسحق! لذا فإن من الضروري أن نوازن بين هذه البيئة المحيطة، التي لم تعد بسيطة ومسيطر على قنوات التواصل معها، وبين ما يجب أن يتشبع به المرء من وسائل السلامة وهو يمخر في عباب هذه البيئة الكبيرة مترامية الأطراف ومتلاطمة الأفكار والعقائد والتقاليد والثقافات؛ فبقدر ميدان المواجهة (والحياة مواجهة من حيث هي) يجب أن يتمتع المرء بالمعرفة والرؤية والوسائل والقدرات. وهذا ما تؤكده أحاديث الفتن عندما يُطالب فيها الرسول الكريم أتباعه في زمانها بمزيد من العلم والإدراك والحكمة والعمل الصالح والأخذ بالأسباب؛ لذا خصَّ علماء الحديث الفتن بأبواب ومؤلفات مستقلة لطبيعة ما تحتاجه من الفقه والتعامل.

وجزء من هذه البيئة المحيطة، جو الصراع الثقافي والديني الذي يسود أي مجتمع، بين القديم والجديد، والتشدد والجفاء، والظاهرية والباطنية، والتوفيق مع المذاهب الأخرى والانغلاق على الخصوصيات، والجماهيرية والنخبوية، والاجتهاد والتقليد... وهكذا. **وكلما اشتدَّ الصراع في بيئة ما كلما خلق بيئة من التناقضات والتحزب والعصبيات**، لذا وجه الإسلام المسلمين للوسطية، والفقه

الذي لا يقف عند الظاهر ولا يُغيِّب العلل والمقاصد، والاستفادة من الآخرين مع الاحتفاظ بمرجعية الشرع كميزان للقبول والرفض، ونشر العلم للجميع وكتمانه عمَّن يشكل لهم فتنة لا على سبيل الإطلاق، وإنكار المحدثات غير الشرعية مع إقرار مبدأ الاجتهاد فيما لا نص فيه... وهو بذلك إنما يعالج ما سبق للبشرية أن وقعت فيه خلال مسيرتها مع التدين، لأن داءها الحديث لا يختلف عن دائها القديم فالتاريخ يعيد دورته بتغيير الشخوص لا الأدوار!

«والتدين الجديد»، الذي نتحدث عنه في هذه الورقة، والذي أصبح مصطلحاً دارجاً وشائعاً في الكتابات والمواد الإعلامية، هو تعبير عن حالة من التدين الذي ظهر على الساحة الإسلامية خارج إطار المفهوم التقليدي للتدين والذي أشاعته الصحوة الإسلامية خلال العقود الماضية، منذ عشرينيات القرن الماضي. معبرٌ عنه بعاطفة «إسلامية» مع وجود سلوكيات مخالفة تتماشى مع انحرافات المجتمع وتُصبغ بصبغة دينية![1]

وهذا التدين رسَّخه عدد من العوامل كان من أبرزها «الدعاة الجدد» كما عكسه على الواقع «المتدينون الجدد».

وإذا كان مفهوم «التدين الجديد» متصل بمصطلح «المتدينون الجدد» باعتبارهم النموذج المادي لهذا المفهوم فإن من الضروري معرفة خصائص هذه الفئة من المتدينين، والتي تميزهم عن غيرهم ليحملوا هذا اللقب.

---

(١) لا شك أن هذا التعريف لا يمثل تعريفاً علمياً كاملاً ومحدداً، نظراً لأن الظاهرة بالأساس لم تتبلور بعد في إطار منهجي أو حركي متحد، فهي متنوعة المشارب ومختلفة التجارب.

خصائص المتدينين الجدد

ظهر في الفترة الأخيرة من العقد الماضي دعاة: «استطاعوا أن ينتقلوا بالأفكار الدعوية والتربوية إلى مدارات جديدة ومختلفة، ومنها إعادة عرض الأفكار الدعوية بشكل جديد، معتمدين على تقنيات حديثة، وأساليب مستحدثة، ومن هذه المشروعات المزدهرة في مصر: مدارس القرآن التي انتشرت بمنهجية متطورة وأسلوب عمل محترف، واعتماد على تقنيات جديدة، وكذلك العدد الضخم من الجمعيات الخيرية والأهلية التي تدار بمجلس إدارة أقل من الثلاثين عمراً، وبأفكار تنموية رائدة»[١].

وانطلق أتباعهم: «نحو عمل اجتماعي شبابي لا يقول: نحن إسلاميون، بل ينخرط فيه الجميع، محجبات وغير محجبات، متمسكون بالصلاة أو غير ذلك!!، ولم يجعل هدفه التغيير الكامل لهؤلاء الأفراد، ولكن التعاون على أهداف بعينها: زيارة لملجأ أو

(١) أثر المتدينين الجدد على الحركة الإسلامية، لأحمد زين. (موقع الإسلام أون لاين).

المشاركة في إنشاء مستشفى أو غير ذلك»[١].

ومما يلاحظ على هؤلاء الأتباع وجود الهمِّ للإسلام، لكن وكما يقول أحمد زين: «التعاطي ونمط المعيشة والتصورات تتم وفقاً لنمط الحياة الغربية بصورة طاغية ولافتة»[٢].

إنه جيل يتلقى ثقافته بنفسه عن طريق الكم الهائل من الفضائيات ومواقع الإنترنت! ويتمتع بقدر من المكانة الاجتماعية، باعتبار الطبقة التي نشأ فيها وظهر منها! كما أنه متمرد اجتماعياً نتيجة الحرية التي يتلقها في أسرته! وله علاقاته المنفتحة مع الجنس الآخر في العائلة والجيرة والدراسة والعمل!

ويشكل مواقعه الخاصة على الإنترنت، والتي تجمع بين ما هو إسلامي وما هو مخالف للإسلام... فصور مشاهير الممثلين والرياضيين والمغنيين... إلخ، مع روابط الأغاني والموسيقى (المنتخبة)!!

ويُعِدُّ برامجه المتنوعة على القنوات الفضائية، وهي متأثرة إلى حد بعيد بالبرامج المختلطة الأخرى!

إنه جيل منطلق يريد تحقيق الأفكار التي اقتنع بها، ونشر الآراء التي تبناها! مستغلاً الوسائل العصرية كالفضائيات والإنترنت والصحافة والمجلات! وتتوفر له كافة وسائل الترفيه والمتعة!

---

(١) المتدينون الجدد من الـ«تيك أواي» إلى الـ«وان كليك»، لأحمد زين. (موقع الإسلام أون لاين).

(٢) المتدينون الجدد وفقه القص واللصق، لأحمد زين. (موقع الإسلام أون لاين).

وإمكانيات الاستقلال بأعمال خاصة! وليس عند هذا الجيل إشكالية في التعايش مع المفهوم العلماني للدِّين! نظراً لمفهوم «الإرجاء» الشائع في أوساطه، ولاختلاط المفاهيم والأحكام الشرعية لديه.

وهؤلاء في الغالب هم نتاج فقهاء الرُّخص والتيسير والتسامح، ونتاج ما عرف بـ«الدعاة الجدد»، لذلك فلا غرابة أن تجد في سلوكياتهم الكثير من المخالفات الشرعية الظاهرة!

وفيما ينظرون إلى أنفسهم بأنهم عاملين ودعاة للإسلام (الذي يحملونه)، تظهر على أشخاصهم وسلوكياتهم مخالفات شرعية، هي في نظرهم أموراً مباحة أو سهلة!! وبالتالي فإن أعمالهم العشوائية والمستقلة تأخذ طابعاً منافساً للطابع التقليدي للجهود والأعمال القائمة!

ومن الأمثلة على دعاة هذا التيار الأستاذ عمرو خالد[1]: «فهو من هذا الوسط، الذي يذهب للنادي ويختلط مع فتيات عائلته، فهو لن يقدم وجهة نظر مثالية أو متخيَّلة، بل على العكس، سيقدم وجهة نظر واقعية تحاول أن تتحرك بالواقع بعض الشيء، لا أن تتجاوزه وتتخطاه، فليس ثمة فراغ اجتماعي، بل هو مجرد التعديل على النمط، فلا مشكلة أن تتحدث الفتاة في التليفون مع ابن عمها، ولا

(١) الأستاذ عمرو خالد داعية له أثره الكبير وحضوره في الساحة الدعوية والإعلامية وليس نقدنا موجهاً للجوانب المضيئة والخيرة من شخصيته وهي كثيرة، لكنه يمثل الشخصية الأبرز في تأثر كثير من شباب الإسلام بهذه الظاهرة فكان من الضروري الإشارة إلى من يمثل قدوة في الفكر والسلوك لهذه الظاهرة.

مانع أن ترافقه إلى عمل أو زيارة، ولا مشكلة أن يتصلا ببعضهما لترتيب زيارة إلى ملجأ أو رحلة جماعية مع بعض المسنين، أو ينزلا في سيارة أحدهما لشراء احتياجات هذه الرحلة، وهذا ما يمكن أن يفسر ابتعاد عمرو خالد عن هذه المساحة، وعدم محاولة أن يتدخل في مساحة لن يستجيب له أحد فيها»(١).

«إنني ألمح خلف هذه السلوكيات ثقة غير محدودة بالنفس، كما أشعر بتجاوز شديد للمرجعيات الفقهية، بالإضافة إلى عملية انتقاء مخلة، سواء بالنسبة لمصادر التلقي (الدعاة غالباً)، أو في الفتاوى التي تُختار، ولا شك أن تنامي معارف هؤلاء المتدينين الحياتية وقدرتهم المبهرة على التوصل للمعلومات (لا العلم)، والثقة الشديدة بالنفس تشعرهم بالقدرة ـ ولو الزائفة ـ على الاجتهاد.. فتكون المعادلة:

اجتهاد العلماء الميسر + اجتهاد شبابي واثق بلا حدود ودون ثقافة شرعية = حالات تساهل وترخص»(٢).

يقول الدكتور صلاح عبد المتعال الخبير الاجتماعي المصري، المستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر، وهو من المتابعين والمراقبين لهذه الظاهرة، في حوار له مع موقع «إسلام أون لاين»: «في تصوري ظاهرة الدعاة الجدد ظاهرة محمودة، وعلينا تشجيعها ومباركتها، وإن كان لي عليها تحفظ؛

(١) المتدينون الجدد من الـ«تيك أواي» إلى الـ«وان كليك»، لأحمد زين. (موقع الإسلام أون لاين).

(٢) المتدينون الجدد وفقه القص واللصق، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

وهو أنها تبتسر الدِّين وتنتقص من شمولية الإسلام، وإن كان بعضهم لا يريد أن يتناول الإسلام بمفهومه الشامل، ولا يتطرق إلى أمور سياسية حتى لا تمنعه السلطات. غير أنه على أي حال جهد مشكور، وكلٌّ يؤجر حسب نيته»[١].

ويفسر نجاح تيار «الدعاة الجدد» في: «أنه يقدم للشباب وجبة شهية من (الدين اللذيذ)، دون (التكليف المر)؛ فلم يحمِّلهم همَّ هذا الدين؛ حيث عرض عليهم ديناً (لا شوكة فيه).

وقد ذكرني ذلك ببعض الفرق المتصوفة التي تتقرب إلى الله وتقوم الليل وتصوم وتتعبد، أما المسئولية السياسية ومعايشة مشكلات الناس.. فلا»[٢].

أما الكاتب عاصف بيات، فيرى أن: «**هناك تحولاً من التركيز على فكرة (الحاكمية للإسلام) إلى التدين الشخصي والأخلاق في المعاملات اليومية**، وهو تحول من فلسفة تستهدف الطبقات الاجتماعية المتوسطة والفقيرة إلى استهداف الطبقات العليا في السلم الاجتماعي، وهذا التحول يجعل الإسلام ليس مشروعاً سياسياً بقدر ما هو نشاط دعوي يهدف إلى الخلاص الذاتي»[٣].

---

(١) «الدين اللذيذ».. لغة الدعاة الجدد!، الدكتور صلاح عبد المتعال الخبير الاجتماعي المصري، المستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر، وهو من المتابعين والمراقبين لهذه الظاهرة، في حوار له مع موقع «إسلام أون لاين»، إعداد: صباح هاشم.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الشباب المتدين بين عمرو خالد وعمرو دياب!، لعاصف بيات. (موقع إسلام أون لاين).

إنهم «يتحركون في المساحات الممكنة بعيداً عن المشاكل، مفضلين ألا تهدر أوقاتهم في محاولة تغيير ما قد يبدو مستحيلاً»؛ بحسب وجهة نظر نهى الإبياري.. وهي تكتب عن حالة أندونيسيا كمثال!

وحول سؤال لصحيفة (الشرق الأوسط) لـ«باتريك هاني»[١] عن مدى احتمال تحول خطاب عمرو خالد و«الدعاة الجدد» إلى وجهة سياسية؟! يجيب: «الابتعاد عن السياسة كان سر نجاح هذه الظاهرة، وما يميزها عن خطاب جماعات الإسلام السياسي الآخذ في الأفول، كما أن التدين الجديد ذا الطابع (المتعولم) والذي يتصاعد خطابه عالمياً دائماً ما يتكون وينمو خارج السياسة، إضافة إلى أن خطاب عمرو هو بالأساس خطاب للطبقات العليا والصاعدة التي لا مصلحة لها في أي تغيير سياسي ولا تملك تصوراً ولا رغبة فيه»[٢].

نخلص مما سبق أن للمتدينين الجدد خصائص تميزهم عمَّن سواهم من التيارات الأخرى:

- فهم أشخاص ينتسبون لبيئات اجتماعية مرموقة ومتعلمة وذات دخل عالي نسبياً.

---

(١) باتريك هاني: حصل على الدكتوراة من معهد الدراسات السياسية في باريس عن الحركة الإسلامية في منطقة إمبابة ـ إحدى الضواحي الشعبية في مدينة القاهرة، ونالت جائزة أحسن رسالة دكتوراة باللغة الفرنسية عن العالم الإسلامي لعام ٢٠٠١م.

(٢) راجع: صحيفة «الشرق الأوسط»، في ٢٠٠٢/١٢/١٣م، انظر: تدين نيولوك.. إسلام البورجوازية في مصر!، لحسام تمّام وباتريك هايني.

- وهم يميلون إلى تدين يراعي بيئتهم وثقافتهم، ومن ثمَّ فهم ينتقون الفتاوى والرؤى الشرعية الميالة للتيسير والترخص.

- كما أنهم يتبنون جهوداً خيرية وأنشطة اجتماعية استناداً إلى خلفية من النوايا الطيبة، لكنها ترسم خطاها بعيداً عن أي عبء دعوي في مواجهة الواقع ومنكراته.

- وهم في مظهرهم غير متميزين عن البيئة الاجتماعية بل والثقافة التغريبية التي نشؤوا فيها، وبالتالي فسيما الالتزام الشرعي غير حاضرة في خطاباتهم ومظهرهم العام.

- وفي المقابل هم يمتلكون مهارات عصرية وشهادات جامعية في علوم تقنية وطبيعية وإنسانية ولديهم خبراتهم الفنية والإدارية لذا فهم يعتمدون على قدراتهم في قيام مناشطهم ومؤسساتهم بشكل مستقل عن أي توجيه.

- ويبتعد هذا التيار عن مجال السياسة باعتبارها مجالاً للخطاب الدعوي، مؤثرين الخطاب الرقائقي والقصصي والوعظي، وحتى عرضهم للتاريخ الإسلامي يأتي مبتوراً عن هذا البعد!

مظاهر «التدين الجديد» وآثاره

إن جيل «المتدينين الجدد» ليس وليد اللحظة، بل هو امتداد كما يبدو للتدين الذي بدأ في منتصف القرن الماضي وعاش دوامة الصراع السياسي بين العلمانية والإسلام، ويدا في حينه أنه لم يحقق شيئاً فاتخذ طابع الكسب الجماهيري لمواجهة المدِّ العلماني، ومن ثم ترخص في كثير من الأمور تماشياً مع الظروف والملابسات التي أحاطت به في ذلك الوقت!

وهو كأي تغير ناشئ له مظاهره التي لا تخطئها العين أو السمع في المجتمع أو عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقرؤة، وهنا نضع سرداً عاماً لهذه الظواهر من خلال مشاهدات شخصية أو كتابات تطرقت للموضوع!

ومن أول مظاهر «التدين الجديد» أنه تدين يغزو الأوساط الاجتماعية الثرية والرفيعة والمثقفة بل والمنفتحة، يقول أحمد زين: «إذا ركزنا على المجتمع المصري كمثال؛ فسنجد تغيراً يُلحَظ في المجتمع المصري ـ ربما منذ ١٩٩٨م ـ في خريطة التدين به، فثمة انتقال لثقل التدين نحو طبقات أعلى اجتماعيّاً واقتصاديّاً وأقوى

وأكثر تأثيراً»[١]. ويضيف: «لكن في العقد الذي نعيشه برزت مظاهر التدين وسط طبقات أكثر ثراءً، أو بشكل أدق: الطبقات (الأكثر ثراءً).. مجتمعات (مارينا) التي غزاها الحجاب، ومساجد النوادي الراقية (الشمس والصيد وسبورتنج) التي امتلأت بجمهور كان قد تعود على ارتياد أماكن اللهو، وقد نشر هذا الجمهور في أنديته صلاة القيام والدروس الدينية، وشهدت الجامعة الأمريكية ـ وهي مكان نخبة النخبة مادياً في مصر ـ صعوداً لتيار إسلامي متعدد الوجهات والاتجاهات»[٢].

وهو تدين يغزو أوساط الفتيان والفتيات، أي شريحة الشباب، بشكل سريع وملموس، ففي تونس: «يرى الباحثون أن هناك إقبالاً متزايداً من قبل فئات الشباب على المساجد، ومن النساء والفتيات ـ خصوصاً في المدن الكبرى ـ على ارتداء الحجاب، على الرغم من وجود نص قانوني صريح مانع له»[٣]. لكن طبيعة هذا الإقبال في تونس: «ترتبط بتوجه اجتماعي وأخلاقي محض، يقوم على وعي المتدينين بأهمية النأي بالتزامهم الديني عن أي صراع سياسي أو حزبي»؛ وهذا البعد عن الجانب السياسي ليس إلا نتيجة للحرب التي لاقتها الأجيال السابقة، إلى درجة ينتقدها الغرب على هذه الأنظمة العميلة له أصلاً!

---

(١) المتدينون الجدد من «التيك أواي» إلى «الوان كليك»، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

(٢) المرجع السابق.

(٣) تونس.. الفضائيات البديل الأمثل للدعاة، لـ د. خالد شوكات. (موقع إسلام أون لاين).

كما أنه يغزو الفضائيات الرسمية وغير الرسمية: «فلم يعد التلفزيون الرسمي يظهر المتدين بالصورة الساذجة التي تلمز الدِّين وقيمه، بل ظهرت المحجبات في الأعمال الدرامية وانتشرت فيه البرامج الدينية حتى في أوقات ذروة المشاهدة، ووصل الأمر إلى أن تكون البرامج الدينية من السهرات الأساسية نور على نور، ورب اشرح لي صدري»[١].

وقد بلغت آثار هذا التيار على الصحوة الإسلامية، يقول أحمد زين: لـ«قد بدأ التأثير في الحركة الإسلامية بالفعل خاصة في الجانب الاجتماعي الذي هو وثيق الصلة بالجانب الفقهي؛ فقد أصبح داخل الحركة الإسلامية الآن شبه حراك في هذين الجانبين، خاصة أن الحركة قد دعمت نمطاً معيناً خلال الثمانينيات. مما يلفت النظر الآن ـ مثلاً وليس حصراً ـ أن كثيراً من السيدات والفتيات المنتسبات للحركة قد استبدلن بـ(الخمار التقليدي) الذي تعود عليه المجتمع المصري والذي كانت توصف كل من تلبسه بـ(الأخت).. استبدلن به غطاء الرأس والصدر القصير المتعدد الأنماط والألوان. هذا التغير وإن أخذ شكلاً مظهرياً إلا أنه ينبئ عن حراك ما، هذا الحراك ربما يكون تم تحت ضغط الأناقة التي يبدو عليها حجاب المتدينات الجدد، وانخراط الكثيرات منهن في مناشط الحركة، وربما تحت ضغط الانفتاح على أشكال الحجاب المختلفة (الإيراني والخليجي والأوربي...)، التي وسعت الخيارات أمام هذا

---

(١) تونس.. الفضائيات البديل الأمثل للدعاة، لـ د. خالد شوكات. (موقع إسلام أون لاين).

الجمهور الذي تعود على نمط واحد من الاختيارات. ولكنه في رأيي يبقى تأثراً بالتدين الجديد، وثورة على النمط التقليدي الذي دعمته الحركة ـ ولو بطريق غير مباشر ـ في فترة الثمانينيات. ومن هذا التأثير تغير الأنماط السائدة في المناشط الاجتماعية؛ كالأفراح والزيارات؛ فأصبح من الطبيعي والمعتاد أن تكون هناك أفراح مختلطة أو رحلات مشتركة، أو ما شابه»[١].

ويضيف قائلاً: «ثانية هذه الملاحظات العابرة حول التأثيرات أيضاً: التعامل مع الفنون؛ فالقطاعات الشبابية داخل الحركة الإسلامية أصبحت تتعامل مع الفنون بقوة؛ بل أصبحت بعض التزكيات داخل الحركة توصي بمشاهدة بعض الأفلام السينمائية والأعمال المسرحية، وكثيرة هي النقاشات حول الأعمال الفنية حتى الهوليودية منها داخل مواقع الإنترنت، وساحات الحوار المتعلقة بالحركات الإسلامية»[٢].

يقول أحمد زين من واقع تعامله مع هذا الوسط: «أعتقد أنني تعاملت كثيراً مع المتدينين الجدد فتياناً وفتيات، سواء في العمل أو الدراسة أو العمل الخيري وغير ذلك من مناشط، وفي كثير من هذه الاحتكاكات تولدت عندي بعض الملاحظات التي أثارت دهشتي؛ فهذه الشريحة التي ترى نفسها ملتزمة بالإسلام، وبعضهم يمارس بعض الواجبات الدعوية، وكثيراً ما يحدثك عن قصة التزامه، وعن

(١) أثر المتدينين الجدد على الحركة الإسلامية، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

(٢) المرجع السابق.

روعة التدين الذي وجد نفسه من خلاله، ومع كل هذه المظاهر؛ فإن ثمة ترخصاً تلاحظه على سلوكياتهم، وسأحاول وضع هذه المظاهر بين قوسين دون ترتيب: (فتيات يضعن الماكياج الخفيف ـ يتساهلن في التعطر والنمص ـ ملابس ضيقة أحياناً ـ مزاح وضحكات عالية بين الجنسين ـ حديث بين فتى وفتاة بعيداً عن المجموع، لا مانع أن يكون استشارة أو شكوى ـ متابعة أحدث الأفلام في السينما العربية والغربية ـ سماع الموسيقى الغربية ومتابعة أخبار الفنانين ـ عدم ظهور الاهتمام بغض البصر. . . إلخ). هذه المظاهر يمكن التأكيد عليها من خلال متابعة جمهور الدعاة الجدد من خلال الفضائيات، أو حتى من خلال التجمعات الشبابية في صلاة القيام أو الاعتكاف في رمضان»[١].

ويضيف متابعاً: «يحضرني مثال تعجبت له، وهو أن إحدى رموز المتدينات الجديدات وهي مذيعة شهيرة لبرنامج ديني؛ هو المصدر الأكثر شهرة وأهمية بالنسبة لمصادر التلقي للتدين الجديد ـ سأغفل دور هذه المذيعة في توجيه الظاهرة، لكنني سأعتبرها إحدى أفراد الظاهرة في التعريف بها ـ سردت بموقع برامجها على الإنترنت قائمة طويلة من المغنين والممثلين العرب والهوليوديين والأفلام والأغاني الأمريكية، ورغم أنها تقول في نهاية حوارها: (إن الحشمة تعطي للمرأة الجمال الحقيقي وهو جمال الأخلاق)، فإنها في بداية الحوار وصفت بـ(الجمال المبتسم) ـ لاحظ الدلالة،

---

(١) المتدينون الجدد وفقه القص واللصق، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

وأخيراً فإنها تحلم للإسلام، يقول الحوار: (أما أكثر حلم تتشوق لتحقيقه فهو تغيير شكل البرامج التي تقدم الإسلام...)، وتقول: (أريد أن أعرض الإسلام بصورة تجعل كل فرد في العالم يفهم المعنى الصحيح لهذا الدين القويم)»[١].

ومن المظاهر المصاحبة ـ وربما تكون أيضاً من الأسباب ـ في هذه الظاهرة: «القص واللصق من الفتاوى والاجتهادات والتي تجري على أشدها لإكساب المشروعية لكثير من الأفعال التي درج الشباب عليها؛ فبدلاً من أن يتنازل عن عادات ما قبل التدين إذا به يحاول أن يجد لها مبرراً شرعياً محترماً»[٢].

وحتى لا نتجاوز في القول، ونعمم في الأحكام، فإن مظاهر «التدين الجديد» ـ الذي نحن بصدده ـ تختلف من بلد لآخر.. بحسب طبيعة الدعاة فيه، ومدى محافظة المجتمع أو انفتاحه، لكن هناك مظاهر مشتركة إلى حد ما؛ وهي في حد نظري:

ـ تصنيف الفقهاء والعلماء إلى متشددين ومتسامحين، وأخذ الفتاوى عن الطرف الثاني بمبرر تسامحهم ليس إلا!! أي عدم الاعتماد على العلمية والموضوعية في انتقاء الأقوال، وإهمال النصوص والبحث عن الرخص بشكل واضح!

ـ وجود مظاهر مخالفة للشريعة في السلوك أو إهمال واجبات بدعاوى تقسيم الدين إلى قشور ولباب!! فالأزياء ذات الزينة

---

(١) المتدينون الجدد وفقه القص واللصق، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).
(٢) المرجع السابق.

والجمال مع حجاب (الشعر فقط) لدى الفتيات أصبح مظهراً للتدين المقبول والمشجع عليه، بل خصصت إحدى القنوات الفضائية المنتسبة للإسلام برنامجاً عن الأزياء لتقديم «الموضة» التي يمكن أن تظهر بها المرأة المسلمة في الشارع والعمل.. مع وجود مقدمة وعارضات أزياء «إسلاميات»!!

- البرامج التلفزيونية التي يقوم عليها شباب من الجنسين ليتناولوا مسائل دينية ونفسية وتربوية من منظور «إسلامي»، مع تبادل الحوار والطرفة والجلسة «الأخوية»! من مثل برنامج «يللا شباب» على الـ:M.B.C؛ وعليه فإن هذه البرامج تقدم أنموذجاً لطبيعة التواصل بين الفتيات والفتيان خارج الحدود الشرعية باسم الدِّين!

- الاختلاط في أوساط الشباب والفتيات السالك في هذا السبيل من «التدين الجديد»، في الجامعات والمعاهد، إلى درجة خروج رحلات مشتركة.. في بعض الدول! وتعد هذه الرحلات برامج دعوية «يجدد فيها الإيمان»!

- صبغ المخالفات الواقعة في المجتمع بالصبغة الدينية في بعض الأحوال، أو إعطاءها الشرعية، وقد يصل الأمر إلى الحكم على أحوال شركية وأقوال كفرية بأنها صور من الإبداع الذي لا صلة للدين في الحكم عليه، وبالتالي يثنى على بعض المرتدين ويحكم لهم بالإسلام!! فالأسلمة عند أتباع هذا الفريق قومية يُنتسب إليها وليس ديناً يلتزم به!! ففي اليمن مثلاً، نشرت صحيفة منسوبة إلى الإسلام قصيدة كفرية، تحت مبرر الإبداع! فما كان من الحركة التي تقوم على هذه الصحيفة إلا أن شكلت لجنة شرعية للرقابة على

الصحيفة، بعدما ترددت الانتقادات حول هذا الأمر، فاعترضت اللجنة بدورها على رئيس التحرير، فما كان منه إلا أن قدم استقالته.. رافضاً تدخل العلماء فيما لا يحسنون!

ـ نشر ثقافة التسامح مع الكفار فضلاً عن المبتدعة، وهو تسامح يتجاوز الثوابت الشرعية في تأصيل الرؤية تجاههم وإبداء المواقف إزاء أعمالهم، والتعامل معهم. أحد دعاة هذا المسلك ظهر ليروي تجربته عن تعلمه اللغة في دولة غربية على نظام الالتحاق بالأسر.. فذكر تجربته هذه مشيداً ـ والحق يقال ـ (ببعض القيم)! لدى هذه الأسرة على مستوى الأبوين والأبناء.. دون أي تعليق على هذا المسلك في الدراسة والمخالفات التي تحيط به! بل قدمت التجربة كأنموذج للكيفية التي ينبغي أن نستفيد بها من الغرب وخبراته في العيش!! ـ هكذا!! كما أن بعض اللقاءات المتلفزة بين الشباب (مقدمي هذا النوع من البرامج) وبين شخصيات غربية تكسر الحواجز النفسية مع الكافر من خلال السلوك المقدم والثقافة المصاحبة لهذه اللقاءات!!

ـ جمع المتناقضات في الشخصية المتدينة، في المظهر، وفي السلوك، وفي التصور..! خذ مثلاً الزي والسيما الخارجية هي ذاتها عند هذا الفريق قبل وبعد «التدين»! في حين يتكلم هؤلاء عن الفن الإسلامي والموسيقى الإسلامية و.. و..، إلا أن الزي لا ينقسم فيما يبدو إلى زي إسلامي (أي بشروطه ومواصفاته) وغير إسلامي!. مثال آخر: يحاول هذا الصنف من «المتدينين الجدد» الجمع بين العادات الخاطئة القديمة والعادات الجديدة، فالخدينات (أي الصاحبات) سلوك قائم قبل وبعد «التدين»!! الفارق هو

(القشور) التي يحرص عليها الطرفين في التعامل!. مثال آخر: مشاهدة «الأفلام والمسلسلات» المحافظة وسماع الأغاني الكلاسيكية أو الموسيقى غير الصاخبة.. فوارق!! لكنها ليست جوهرية بين ما قبل «التدين» وما بعده!!

- الاهتمام بجانب حسن السلوك مع الآخرين والإحسان إليهم بالعطاء والعون... وببعض أعمال القلوب التي قد لا تخلو منها قلوب العامة على فطرتها، هذا مع شيء من الرقائق، وإغفال جوانب مهمة في مسائل العقيدة والإيمان والتوحيد والولاء والبراء، وحقيقة اتباع النبي ﷺ ودعوته، ومسائل الأحكام التي خالفها كثير من الناس اليوم حتى اندرست!

وهذه المظاهر تتفاوت من شخص لآخر، لكنها بطبيعة الحال موجودة وقائمة ومنتشرة في هذه الأوساط.

أسباب ظاهرة «التدين الجديد»

١ ـ الدعاة الجدد:

ظهر في الآونة الأخيرة طائفة من الدعاة الذين ينتسبون إلى النخب المتعلمة والمثقفة والطبقة الاجتماعية الثرية، يتقنون فنون الإلقاء والخطاب الوعظي والقصصي ويظهرون على الجماهير من خلال الشاشات الفضائية؛ (في وقت تعاني فيه الساحة الإعلامية من جفاف روحي وفراغ إيماني في برامجها الهابطة إلى مستوى الحضيض).

هؤلاء الدعاة الذين برزوا في الآونة الأخيرة، وأصبح الحديث والكتابة عنهم بمصطلح «الدعاة الجدد»، ليس لهم توجه واحد، أو منهج يجمعهم؛ فلكل منهم ثقافته واهتماماته وأفكاره، وليس من السهل الحكم عليهم إجمالاً!

وحديثنا عنهم في هذه السطور، هو من باب الكلام العام، وما قد نطلقه من أحكام ليست بالضرورة تشملهم جميعاً. فمنهم من يستغرق في محاضراته ودروسه في الحديث عن الأمور الحياتية

اليومية: اهتمامات الناس، واحتياجاتهم الخاصة؛ بلغة ميسرة، إنهم يجيبون الناس على سؤالين مهمين: ماذا أفعل؟ وكيف؟

والبعض منهم يقدم: «محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ كرجل أعمال ناجح جداً» في حديثه عنه أمام الناس، أو باعتباره «رمزاً للنجاح الاقتصادي»، أو غير ذلك من التوجيهات لجوانب تشملها شخصية الرسول الكريم لكنها لا تمثل بذاتها شخصية الرسول الموحى إليه والمأمور بتبليغ تكاليف في أهم قضايا البشرية: التصور والسلوك.. الإيمان والعمل!

لكن الدعاة الجدد رغم تنوعهم واختلاف مشاربهم، يلتقون في أربع نقاط: فهم جميعاً قادمون من قطاعات التعليم العالي، واكتسبوا ثقافتهم الدينية بأنفسهم، وينتمون غالباً إلى أوساط ثرية وراقية، وفي حين يظهرون مستقلين عن «المؤسسة الدينية الرسمية» من جهة، و«الجماعات الإسلامية» من جهة أخرى... ويسيرون في مسعى توفيقي بين الإسلام والواقع الذي تعيشه الشريحة المخاطبة، «فرسالتهم تعمل أساساً في وسط تسوده الثقافة الاستهلاكية؛ حيث لا محالة من خلق تناغم بين قيم الدِّين والمكانة في المجتمع. إن هذا النوع من الدعوة يشبه في ذلك اتجاه الكنيسة المثودية في أمريكا والتي يتبعها الأغنياء في الأساس؛ لأنه يمكنهم في ظلها الجمع ببساطة بين الإيمان والثروة وهذا ما يفعله (الدعاة الجدد): جعل الأغنياء يشعرون بالرضا عن ثرواتهم»[1].

---

(١) الشباب المتدين بين عمرو خالد وعمرو دياب!، لعاصف بيات؛ بتصرف. (موقع إسلام أون لاين).

إن هدفهم الرئيس هو «تصحيح القيم الأخلاقية لدى الأفراد فيما يتعلق بسلوكياتهم اليومية»[١].

وليس لدى ـ هؤلاء ـ من مشروع سوى رفع المستوى الأخلاقي لدى الشباب المنفتحين على الحداثة، من خلال خطاب ديني يحمل قيم تحقيق الذات، على النمط الليبرالي الجديد: الطموح والثروة والنجاح والمثابرة في العمل والفاعلية والاهتمام بالذات.

وهذه الطائفة من الدعاة تتميز بلغة سهلة ومظهر عصري غير تقليدي(!)، أي قريب لمظهر المتلقي، وتقدم استشارات نفسية وتربوية واجتماعية وإدارية، مازجة بين الثقافة الغربية والموروث الإسلامي... وإلى هنا يظل الأمر طبيعياً، وليس فيه ما يمنع من سماع الناس لهؤلاء والاستفادة مما لديهم واستشارتهم في مجال تخصصهم؛ إلا أن الأمر تجاوز ذلك، إلى حدِّ الاقتداء بهذه الطائفة من الدعاة في مظهرها العام وسلوكها في الحياة وتعاطيها مع المسائل ورؤيتها للقضايا، ليصبحوا مرجعية للمتلقين عنهم وأسوة للأتباع المتأثرين بنجاحاتهم وشهرتهم الإعلامية.

إن «الدعاة الجدد» يوصلون للشباب رسالة أنه «بإمكانهم أن يصبحوا متدينين، وفي الوقت نفسه أن يمارسوا حياتهم الطبيعية من عمل ودراسة وترفيه، كما يمكنهم أن يظهروا بمظهر عصري يشبه أبناء جيلهم، والأهم من ذلك أنه يمكن للشباب أن يكون متديناً ويحتفظ في الوقت نفسه بسلطته ومكانته الاجتماعية أي بما فيها

---

(١) الشباب المتدين بين عمرو خالد وعمرو دياب!، لعاصف بيات؛ بتصرف. (موقع إسلام أون لاين).

المخالفات الشرعية»[١].

لقد أصبحت طائفة «الدعاة الجدد» ـ إن صح التعبير ـ تزاحم دور علماء الدين وفقهاء الشريعة، أدركت ذلك أم لم تدرك، وشاركت فيه أو لم تشارك، وأصبحت المخالفات الظاهرة التي ترتكبها هذه الطائفة، أو الانحرافات التي تحملها أحياناً، محط اقتداء من الجماهير. وقد وصل الأمر بالبعض إلى إلغاء الحقائق المعلومة من الدِّين والواقع تجاه مخالفات ظاهرة، كمخالفات فرقة كـ«الصوفية» مثلاً... تحت تأثير بعض هؤلاء «الدعاة الجدد» من التيار الصوفي!!

وأحياناً يعطي «الدعاة الجدد» صورة مشوهة عن العلماء والدعاة والفقهاء، وانطباعاً عن توجه ناقد لهم.. باعتبار أنهم متشددون أو أنهم متخلفون أو غير مواكبين للحياة العصرية اليوم!!

٢ ـ دور بعض أهل العلم والفتيا في تتبع الرخص والتوسع في التسهيل:

إن البداية تكون بفتاوى تيسر على الناس وترخص لهم في بعض المسائل، وشيئاً فشيئاً يتولد عند هؤلاء الأتباع فقه مبني على تتبع الأقوال والاجتهادات الموافقة للهوى، وإذا كانت إرادة الفقيه من التيسير تقريب الناس من الدِّين وتحبيبه إليهم.. فإن النتيجة تكون باباً يخرج منه الناس من الدِّين.. وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً!

(١) الشباب المتدين بين عمرو خالد وعمرو دياب!، لعاصف بيات؛ بتصرف. (موقع إسلام أون لاين).

وهنا تحسن الإشارة إلى أن التيسير في الشريعة على مراتب، فهناك التيسير العام الذي تتميز الشريعة به في تكاليفها عموماً، حتى مع ثقلها وكلفتها، وهذا ما يقصد به العلماء أن مبنى الشريعة على التيسير: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهناك التيسير المتعلق بظروف التكليف، فإن الشريعة راعت قدرة المكلف وحاله وظرفه، ومن ثمّ فما يكون واجباً على شخص قد يسقط عن آخر للفوارق، ومبنى هذا الأمر على نصوص قرآنية ونبوية عديدة تشير لهذا الأمر. وهناك نوع آخر من التيسير مبناه على اختيار العبد في شأن ما يلائمه من عبادات وكفارات وأحكام تركت على التخيير زماناً أو مكاناً أو بتقديم بدائل تستوعب ميول الناس وتنوع مشاربهم. وهناك تيسير تكاليف الإيمان والتصديق فكل ما أخبر الله به من الغيب ميسور تصديقه. ومن تيسير الشريعة تيسير حفظها وتسهيل إدراكها وفهم تعابيرها وفقه مقاصدها وثوابتها وأصولها وقواعدها الكلية. وجوانب أخرى لا يتسع المقام لسردها.

فالتيسير في الشريعة من حيث هو ثابت ومعلوم ويشكل ملمحاً بارزاً فيها، إلا أن خلط هذا التيسير بتمييع العقائد وتحويل الأصول والقواعد والثوابت إلى قضايا ثانوية أو استبدالها بأصول وثوابت محدثة أصبح سمة لدى هذا التيار.

يقول أحمد زين: إن «البراح في المساحات الفقهية للعلماء، الذين ينتهجون التيسير والتسهيل على المسلمين، أوجد ـ عند هؤلاء المتدينين ـ رأياً متساهلاً في كل قضية فقهية، وأنه لا جناح عليهم في انتهاجه؛ فهو رأي فقهي معتبر من عالم معتبر»! بتصرف؛ ويضيف: «**وأنا أرى أن ظاهرة القص واللصق من الفتاوى**

والاجتهادات تجري على أشدها لإكساب المشروعية لكثير من الأفعال التي درج الشباب عليها؛ فبدلاً من أن يتنازل عن عادات ما قبل التدين إذا به يحاول أن يجد لها مبرراً شرعياً محترماً»[١].

وهذا القول لأحمد زين جاء من استقراء: ف«من خلال فتاوى المرأة على موقع «إسلام أون لاين.نت» نستطيع أن نرسم صورة لحركة المرأة في المجتمع؛ فهي تصافح ابن عمها أو ابن عمتها عند الضرورة (فتوى: مصافحة الرجل للمرأة.. الحكم والضوابط، د. القرضاوي)، وهي تقابل مطلقها لأغراض شريفة (هل يجوز للمرأة المطلقة أن تتقابل مع من طلقها بعد الطلاق لأغراض شريفة؟ د. القرضاوي)، وتستطيع أن تتابع رياضيين يرتدون الشورت (فتوى: ضوابط النظر بين الرجل والمرأة، د. القرضاوي)، كما أنه لا بأس أن ترقق المرأة حاجبيها (فتوى: ترقيق المرأة حواجبها، الشيخ عطية صقر)، وتستطيع أن تخطب لنفسها من أرادت (فتوى: ما حكم أن تخطب المرأة الرجل؟ د. علي جمعة)، ويجوز أن تضع العطر الخفيف (فتوى: حكم وضع المرأة للعطر، الشيخ عطية صقر)، وهي تخدم الضيوف (فتوى: خدمة الزوجة للضيوف، عطية صقر)، كما يجوز لها ركوب الدراجة (فتوى بدون اسم مفتٍ)، كما يجوز لها العدو في الشارع (فيصل مولوي)، كما يجوز لها قراءة القرآن أمام الرجال (فتوى: د. نصر فريد واصل)... إلخ»!!

وهذه الفتاوى تستند في غالبها إلى دليل شرعي أو قاعدة شرعية أو قول سابق، وصادرة عن أشخاص منتسبين للفقه، لكنها

---

(١) المتدينون الجدد وفقه القص واللصق، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

في الحقيقة فتاوى تأخذ بالأقوال الشاذة والأدلة الضعيفة أو المرجوحة، وتفترض في بيئة المستفتي أنها محافظة.. سليمة من الفتن! وتشكل عند الجمهور المتساهل منهجاً مبيحاً للمحرمات، التي هي دون الكبائر المعدودة على أصابع اليدين!!

ويقابل هذه الفتاوى المتساهلة: «إلحاح الدعاة الجدد على الرجاء ورحمة الله وغفران الذنوب مهما كانت، وهي مساحة لا شك فيها ولا إنكار لها، إن الإلحاح عليها كأنها المسار الوحيد.. والخيار الفذ أوجد خللاً لدى المتعرضين لهذا الخطاب، ووجههم إلى مزيد من الجرأة على الحرام مع التأكد من مغفرة الله لهم، وكذلك من تركيز بعض الدعاة الجدد على مسألة أعمال القلوب وأهميتها والتقليل من شأن أعمال الجوارح والسلوكيات والأخلاق»[١].

وهنا أمر آخر ذو صلة بهذا الجانب ألا وهو انتفاء خصوصية الواقعة المعينة المعنية بالفتوى، بمعنى أن وجود وسائل النشر والاتصال والإعلام سهل توسيع نطاق انتشار الفتاوى المتعلقة بالحالات الخاصة، ذات الضرورة أو المصلحة، ففي حين كان الشخص المستفتي يسأل المفتي منفرداً حول مسألته التي ينظر المفتي فيها جانب الظرف والضرورة والحاجة والحال والمصلحة، أصبح اليوم يتلقى الناس هذه الأسئلة والإجابات عبر وسائل متعددة دون أن يميزوا بين الأحكام العامة وفتاوى الأحوال والأشخاص، وهو ما أربك المتلقين الجاهلين بمعنى الفتوى! لذا تجد من يأخذ بهذه الإجابات وينزلها على حالته قياساً! دون النظر إلى اعتبار

---

(١) المتدينون الجدد وفقه القص واللصق، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

الخصوصية! والبعض جعل من هذه الفتاوى القاعدة الأساسية واتخذ من منهجية مراعاتها للضرورات والمصالح تكئة لما يظنه ضرورة أو مصلحة.

٣ ـ ضيق بعض أهل العلم والفتيا بالآراء الاجتهادية المخالفة وسلوكهم منهج التشدد في الفتيا وغياب تأثيرهم التوجيهي في أوساط المجتمع وضمن شرائح الناس:

ولعل هذا الأمر واضح، فإن التشديد على الناس في الفتيا، والتضييق على العلماء المخالفين والاجتهادات الأخرى، يصرف الناس إلى من يمثل البديل الأقرب إلى نفوسهم والصدر الأرحب لاحتضانهم. وقد يجمع البعض إلى هذا الطبع والمنهج السلوكي مع الآراء والمخالفين غياباً عن المشهد الاجتماعي والتأثير في الناس والقيام على مصالحهم ومخالطتهم ومعايشة ظروفهم ليمثل القدوة الحية لهم وتباشر توجيهاته حواسهم وعواطفهم، تحت مبرر التفرغ للعلم والتدريس والقراءة والبحث، وكأن إصلاح الناس لا يتم إلا بالبيان النظري والبلاغ اللساني! وينسى أمثال هؤلاء أن الأنبياء والمجددون ورموز الحديث والفقه امتهنوا حرفاً وأعمالاً قدمتهم للناس وكانت سبباً في معايشتهم ومعرفة أمالهم وآلامهم وجوانب حياتهم فوجهوا السلوك بالسلوك والفكر بالإقناع والوجدان بالمشاعر الحية الملموسة!

فغياب العالم عن الأمة وتعامله معها كأنه قارئ «نشرة أخبار» يسقطه من قلوب كثير من الناس، ويضيق دائرة التأثير به على أتباعه وخاصته! ويبقى للعامة أن يبحثوا عن من يجدونه معهم وبينهم وفيهم!

٤ ـ القنوات الفضائية:

إن وسائل الإعلام ـ اليوم ـ تقع تحت ضغط الجماهير التي بدأت تنفر من المستوى الهابط الذي وصلت إليه كثير من البرامج، وتطالب ـ في ذات الوقت ـ ببديل إسلامي يتفق مع الهوية الثقافية والحضارية للأمة في ظل احتفاء الآخر بقيمه وثقافته ومحاولة تمريرها بالقوة على مجتمعاتنا المسلمة.

وفي محاولة منها لإرضاء التوجهات المختلفة إسلامية وعلمانية، فإن القنوات الفضائية تجد في هذا الصنف من «الدعاة الجدد» فرصة في تقديم البديل الإسلامي المطالب به جماهيرياً؛ بل هي تحاول صنع أمثال هؤلاء الدعاة «على أعينها» لأنهم في الغالب لا يتصادمون مع مضامين الرسالة الإعلامية لها.

وتحاول بعض هذه القنوات ركوب الموجة واستغلال التيار.. فهي إما تقدم نفسها كبديل إسلامي، أو أنها تمزج بين هذا وذاك! خاصة وأن هناك قنوات إسلامية قوية بدأت تظهر في الساحة الإعلامية!

يقول د. خالد شوكات في إيضاح العلاقة بين مظاهر التدين في تونس والقنوات الفضائية: «يؤكد المتابعون والمهتمون بالشأن الاجتماعي والثقافي في تونس وجود صحوة دينية كبيرة لدى شرائح اجتماعية واسعة داخل المجتمع التونسي، تتجلى بصورة خاصة في إقبال التونسيات على ارتداء الحجاب، كما يلحظون أن وجود القنوات الفضائية الإسلامية قد مثل بديلاً جيداً للمعرفة الدينية بالنسبة للمتدينين في هذا البلد الذي يتعرض فيه التيار المتدين لقمع

شديد، ويكاد يغيب فيه دور الدعاة»[١]. إذن هذا الجمهور لا بد له من بديل، وهذا البديل مع غياب الدعاة كان القنوات الفضائية!

«وقالت الباحثة الجامعية التونسية سنية المنصوري في تصريح لـ(إسلام أون لاين.نت) بتاريخ ٣١/٧/٢٠٠٣م: إن وجود قنوات فضائية إسلامية أمثال (اقرأ) و(المجد) وغيرهما من الفضائيات، قد مثل مصدراً بديلاً للمعرفة الإسلامية وللفتوى الدينية، خصوصاً لدى الفتيات والنساء، في ظل غياب الدعاة والوعاظ الدينيين عن المساجد والبرامج الإذاعية والتلفزيونية المحلية (بسبب التضييق الأمني من جانب السلطات التونسية)، كما أن الدعاة الدينيين من أمثال (عمرو خالد) و(حبيب علي الجفري) قد تحولوا إلى شخصيات مؤثرة في أوساط اجتماعية كبيرة بتونس»[٢].

«إن هذا التيار الجديد من الدعوة ظهر ليوفّي بمتطلبات الشباب الذين ينفتحون أكثر فأكثر على الثقافة الغربية؛ فهذا الشباب الممتلئ بالأفكار المختلفة غير المتناغمة أنتج هذه الثقافة الجديدة من التدين، التي تعبر عن نفسها من خلال تجديد في الأسلوب والذوق واللغة والرسالة»[٣].

«إن الشباب هو الذي خلق لنفسه هذه الثقافة الدينية الجديدة التي تتمحور حول ظاهرة (الدعاة الجدد) كنوع من (الموضة)؛ فهي

(١) تونس.. الفضائيات البديل الأمثل للدعاة، لـ د. خالد شوكات. (موقع إسلام أون لاين).

(٢) المرجع السابق.

(٣) الشباب المتدين بين عمرو خالد وعمرو دياب!، لعاصف بيات. (موقع إسلام أون لاين).

منفذ للتنفيس عن احتياجات إنسانية متناقضة: احتياجات للتغيير والتأقلم، للتميز عن الآخر والتشابه معه، للتفرد والالتزام بالمعايير الاجتماعية، وبالتالي فإن التمسك بهذا النوع من (التدين الإيجابي)[1] يسمح للشباب بأن يحافظ لنفسه على هوية تميزه؛ وفي الوقت نفسه يتعامل مع التغيير الحادث من حوله، وهو إذ يفعل ذلك يتحرك في إطار المعايير الاجتماعية ولا يضطر إلى خرقها»[2].

إن تعدد مصادر التلقي ووسائل الإعلام المتنوعة قدمت للشباب الراغبين للالتحاق بالصحوة قدراً وافراً من الاختيارات البديلة؛ وهو ما أدخل عناصر أخرى ساهمت في توجيههم وتشكيلهم، وغيرت مسار توجههم على خلاف الحقيقة أحياناً كثيرة، فقد أصبحت برامج الفضائيات تشكل أكبر رافد لتكوين أفكار «المتدينين الجدد» وثقافتهم الدينية، وبحكم سنهم وانفتاحهم على الإنترنت والفضائيات أصبحوا يتلقون المفاهيم والتصورات والآراء والاستشارات والسلوكيات منها، وحيث إن «الدعاة الجدد» ينفذون من هذه الوسائل والقنوات إلى جمهورهم فإنهم بلا شك يصنعون قاعدة عريضة من هذا التيار! ويبنون علاقتهم مع المتلقين عنهم بأسلوب التفاعل الحي والتواصل المباشر والحوار الثنائي ـ وهي أساليب محببة وجذابة لكثير من جيل اليوم ـ لا على التلقي والتوجيه كما هو معتاد!

---

(١) بحسب اعتقاد الكاتب، أو فيما يرويه عن هذا التيار.
(٢) الشباب المتدين بين عمرو خالد وعمرو دياب!، لعاصف بيات. (موقع إسلام أون لاين).

٥ ـ السياسات الحكومية:

إن من أهم أسباب ظهور «التدين الجديد» هي تلك الحرب الإعلامية والدعائية التي مورست ضد «التدين الأصيل» في الصحوة، والذي يحتكم إلى الكتاب والسنة وفهم الصحابة والقرون المفضلة الأولى في الإيمان والاتباع، وهو المسمى بالتوجه السلفي! وهو ما شكل حاجزاً نفسياً بين الناس وبين هذا الشكل من أشكال التدين المعروضة على الساحة!

إضافة إلى ذلك، السياسات التي تتبنها بعض الدول لتضيق الخناق بها على المتدينين عموماً، وتحرمهم من ممارسة حقوقهم الخاصة حتى في ظل الأنظمة الديموقراطية زورا!! تدفع بالبعض إلى البحث عن رخص الفتاوى في مقابلة البطش والتعذيب الذي قد تتعرض له.

تقول الباحثة سنية المنصوري: «إن الصراع الذي شهدته تونس خلال عقد التسعينيات، بين النظام والحركة الإسلامية، قد أضر في حينها بوضع الالتزام الديني لدى التونسيين عامة، على الرغم من أن عدداً كبيراً من أبناء المجتمع التونسي كانوا ملتزمين من الناحية الدينية، لكنهم لم يكونوا أعضاء في حركة أو جماعة إسلامية.

وكان تقرير الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان السنوي عن عام ٢٠٠٢م قد تحدث عن الحملات الأمنية والإدارية ضد المحجبات التونسيات، وجاء فيه أن العديد من المحجبات تعرضن إلى المضايقات في الشوارع أو أماكن العمل، وتم تجريد العديد منهن من الحجاب عنوة في بعض مراكز الأمن بالعاصمة، وإجبارهن

على التوقيع على تعهد بعدم العودة إلى ارتداء الحجاب. كما أن الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان كانت قد ذكرت في ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣م أن عدداً من طالبات التعليم الثانوي مُنعن من اجتياز امتحانات نهاية العام بسبب ارتدائهن للحجاب.

يذكر أنه في عام ١٩٨١م أصدرت السلطات التونسية قانوناً يعتبر الحجاب زياً طائفياً. ومنذ ذلك الحين والحكومة تلتزم بهذا القانون، إلا أنه تم التشديد على منع المحجبات من دخول الجامعات والإدارات الحكومية منذ مطلع العقد الماضي، وهو ما أثار انتقادات واسعة في الداخل والخارج، خصوصاً من جانب المنظمات الحقوقية التي ترى في منع الحجاب والتضييق على المحجبات تدخلاً في الحرية الشخصية للمواطنين»[1].

وعقب أحداث ١١ سبتمبر، اتجهت السياسات الحكومية في الوطن العربي خاصة، في ظل فشل الخطاب الديني الرسمي على كسب ثقة الجماهير، وعدم قدرة هذه الدول على تحقيق نجاح قومي أو وطني، وزيادة الإقبال لدى الناس على التدين، وتصدر عدد من العلماء والدعاة بخطاب علمي مؤصل وفقه للواقع وتقديم رؤية شاملة للإصلاح السياسي والاجتماعي تقوم على أساس من الدين الإسلامي. . . الأمر الذي هددً مستقبل هذه النظم العلمانية في هذه البلدان، وخروج الطاقات الشبابية عن سيطرتها وسيطرة العلماء. . . اتجهت إلى صياغة بديل قادر على حرف مسار هذا التيار القادم

---

(١) تونس. . الفضائيات البديل الأمثل للدعاة، لـ د. خالد شوكات. (موقع إسلام أون لاين).

والعارم ـ كما يبدو، وليس بالضرورة لديها أن يكون رسمياً، لكنه مسيطر عليه أو في أقل الأحوال «غير متمرد»!! وهذا البديل يشمل المناهج التعليمية والخطاب الدعوي والمؤسسات والقيادات الفاعلة في الأوساط الاجتماعية والشبابية. وربما تتم صياغته بالاتفاق مع أكثر من جهة تتصل مصالحها مع قيام «بديل» بهذا النوع والحجم!!

«وفي وزارة الأوقاف ـ المصرية ـ تشدد مشاريع الإصلاح على الدور الاجتماعي للمسجد وعلى أهمية المجتمع المدني والاكتفاء الذاتي. إن إحدى حلقات الدراسة في الأزهر تطرقت إلى ضرورة إعادة صياغة الدعوة انطلاقاً من تعاليم التسويق الأمريكية»[١].

وفي فترة سابقة من تاريخ الأنظمة الحالية، كان لزاماً على أجيال سابقة إذا أرادت أن تعبر عن مشاعرها الدينية، وتظهر ملامح هذا التدين.. أن تنضم إلى جماعة؛ أو هكذا كان يبدو الأمر عند الحركات الإسلامية ذاتها! فكان ذلك يكلفها بمقتضى التضييق الأمني ضريبة لا يستطيعها الكثيرون اليوم، لكن هذا «التدين الجديد» قدم طريقة مغايرة لما عليه فكر الحركة الإسلامية! فهو يمارس العمل الدعوي ويعبر عن تدينه وينشط اجتماعياً، دون أن يتعرض للملاحقة والاعتداء في الغالب، لا لشيء سوى لأن مطالبه لا ترتقي إلا مطالب الحركة، فهو يعمل في مجموعات صغيرة ذات أهداف محدودة يشارك فيها الجميع علانية، وتعالج ـ إن عالجت ـ ظواهر الأمور وشكليات المشاكل! وهو بالتأكيد يستحضر صورة

---

(١) تدين نيولوك.. إسلام البورجوازية في مصر!، لحسام تمّام وباتريك هايني. (موقع إسلام أون لاين).

الصراع الدامية التي حدثت لأجيال سابقة ويريد أن يتجنبها!

٦ ـ الغرب:

وأقصد بالغرب هنا ذلك المزيج من التحالف الغربي الذي يستهدف العالم الإسلامي حضارة وأمة ومقدرات. فبعض أوجهه سياسية، أو اقتصادية، أو ثقافية، أو عسكرية.. وتارة يتمثل في منظمات دولية وأخرى في مؤسسات ومساندات محلية.

ومن مصلحته ـ في ظل هجمته على العالم الإسلامي ـ الانحراف بالتوجه والخطاب الديني الذي يكرس الندية بين العالمين الإسلامي والغربي، وتهدئة لغة التعبئة التي يقوم بها العلماء والدعاة ضد كل ما يخالف الدين الإسلامي واستقلالية الأمة.

وقد احتلت مسألة مخاطبة العالم الإسلامي مؤخراً الأولوية في قائمة الاهتمامات الخارجية لدى الغرب، فالإذاعات العربية والقنوات الفضائية «المعربة» تنال الرعاية والتمويل من قبل الحكومات هناك. وليس أدل على ذلك من مشروعي قناة «الحرة» وإذاعة «سوا» اللتين افتتحتا مؤخراً في المنطقة.

والملاحظ أن الغرب قلق من «الخطاب الديني الإسلامي» أياً كان، متطرفاً أو متساهلاً!! فالكل يخضع للرقابة والمتابعة والتحليل!!

ومن المضحك أن شخصية كفضيلة الشيخ يوسف القرضاوي ـ حفظه الله ـ وهو يُعدُّ عند كثير من العلماء والدعاة من المتساهلين في أحكامه ومواقفه في المسائل الحادثة والأحكام الفقهية، لا يجد

قبولاً في الأوساط السياسية والإعلامية، بل واجه مؤخراً حملة تصفه «بالتطرف» و«الإرهاب»!! لا لشيء سوى لمواقف الشيخ تجاه الاحتلالين الإسرائيلي لفلسطين والأمريكي للعراق!!

وهناك ضغوط تمارس ضد الدول الإسلامية لإيجاد بدائل للخطاب الديني القائم، بما يتفق مع النهج الديمقراطي والتعددية الفكرية والسياسية التي يراد للمنطقة أن تنفتح عليه! كما أن الحالة الأمنية التي أفرزتها هذه الضغوط في جانبها الأمني أفسحت المجال لـ«تدين» من هذا النوع في مقابل انحسار «التدين» التقليدي!

وللعلم، فإن ظاهرة «الدعاة الجدد» حازت على اهتمام الغربيين، في إطار الاهتمام بحركات «التدين الجديد» عموماً! فقد أصدرت الدورية الفرنسية «السياسة الأفريقية»، في عددها ٨٧ ملفاً خاصاً. بعنوان «موضوعات الرب»؛ لبحث التغيرات الجديدة على مستوى الدين في قارة أفريقيا السمراء.

و«السياسة الأفريقية» واحدة من أهم الدوريات المتخصصة في الشئون الأفريقية، وتصدر عن مركز الأبحاث السياسية والقانونية في القارة الأفريقية بجامعة السوربون، ويرأس تحريرها «ريشار بانيا» و«رولان مارشال». وهي تعكس الاهتمام الفرنسي الكبير بالقارة السمراء التي شهدت منذ نهاية الثمانينيات نوعاً من العودة للدين على كل المستويات.

وقد ضم الملف دراسات ومقاربات مختلفة حول الدين والحياة في أفريقيا؛ وكانت أهم دراسات الملف تتحدث عن «الدعاة الجدد»، «لأنها ربما كانت الأولى والأهم عن ظاهرة جديدة

على الحقل الديني الإسلامي» ـ كما يقول حسام تمام.

والدراسة وهي بعنوان: «الإسلام كظاهرة اجتماعية» أعدها «باتريك هاني» وهو باحث اجتماع سويسري يعيش في مصر وهو مختص في الظاهرة الإسلامية. وقد أشار إلى أن: «أهم نقاط الاختلاف التي ترصدها الدراسة ـ بين الدعاة الجدد ومن قبلهم ـ كانت الابتعاد عن السياسة والتزام خطاب أخلاقي يختلف مع خطاب هذه الجماعات والتنظيمات السياسية»[١].

وترى الدراسة «أن نموذج عمرو خالد يمثل تلبية للاحتياجات الدينية للنخب والطبقات العليا في مصر، ومحاولة لتقديم إسلام بمواصفات خاصة لأبناء هذه الشرائح التي تستقر بأعلى الهرم الاجتماعي في مصر، بما يلبي رغبتها الحقيقية في التدين وفي ألا تحمل شعوراً بالذنب أو إحساساً بالتقصير يدفعها إلى إعادة النظر في وضعها الاجتماعي وما يكفله لها من امتيازات لا تتاح للطبقات الأقل، وهو تدين ذو مواصفات خاصة لن تجده هذه الشرائح في خطاب الشيوخ التقليديين»[٢].

«وخطابه ـ عمر خالد ـ بالأساس رافض لانحلال الطبقة البرجوازية التي ينحدر منها، ولكنه أيضاً متصالح مع هذه الطبقة، ويستجيب لرغباتها في تدين بمواصفات خاصة بها، وبالشباب منها بصفة خاصة باعتباره الحلقة الأضعف من هذه الطبقة، وهو تدين

(١) عمرو خالد.. الطبعة الإسلامية لليبرالية الجديدة!، لحسام تمام. (موقع مركز دراسات الظاهرة الإسلامية).

(٢) المرجع السابق.

جديد.. الدنيا حاضرة فيه بقوة وليست على صِدام مع الدين، كما لا يتعرض فيه البناء الاجتماعي للطبقة والعلاقات الأسرية إلى خلخلة أو تفسخ أو صدام بين أطرافه كما يحدث في التدين السلفي الذي تقدمه جماعات وتنظيمات الإسلام السياسي»[١].

وتقارن الدراسة «بين خطاب عمرو خالد من خلال تحليل مضمون درسه (الشباب والصيف) وبين خطاب الإصلاح البروتستانتي في أوائل القرن التاسع عشر لتتحدث عن أوجه تشابه كبيرة بينهما خاصة فيما يتعلق بالنظرة إلى الثروة الاقتصادية، فخطاب عمرو خالد يتحدث عنها باعتبارها ليست عيباً أو ذنباً بل هي نعمة من الله، ويؤكد على ذلك في كل دروسه مبرراً التراكم الاقتصادي الذي حققته الطبقة البرجوازية في السنوات الأخيرة ويعطيه الشرعية الدينية مشروطة بأداء حقه، وهو خطاب موجه بالأساس إلى الطبقة المهيمنة أو الصاعدة اقتصادياً حتى في رؤيته للأخلاق والقيم الإسلامية، فالصبر مثلاً في خطاب عمرو خالد يختلف عن الصبر في الخطاب الإسلامي التقليدي الذي يأخذ طابعاً (قدرياً) في حين يعني عند عمرو التواصل والاستمرار في العمل وتنظيم الوقت والمثابرة على النجاح»[٢].

و«ما اقترب منه الباحث ولم يقله أن المهم في ظاهرة الشيوخ الجدد هي الحالة التي يصنعونها وليس أشخاصهم ولا مضمون

---

(١) عمرو خالد.. الطبعة الإسلامية لليبرالية الجديدة!، لحسام تمام. (موقع مركز دراسات الظاهرة الإسلامية).

(٢) المرجع السابق.

كلامهم. الحالة هنا هي الجو المحيط والوسيط الذي ينتقل عبره الكلام والجمهور الحاضر وهكذا. . فهذه الحالة تؤدي إلى تصالح شعوري بين الواقع المعيش وبين الدين الذي يمثل المرجعية الأساسية للشخص الحاضر المنتمي للبرجوازية الجديدة. ويصير السلوك الشخصي المعيش حياتياً المرفوض دينياً (مثل الاختلاط مع الفتيات غير المحجبات أو المحجبات والتعرف عليهن) سلوكاً دينياً مطلوباً (فالشاب صار يدعو الفتاة للدين)»[١].

«وتضع الدراسة ظاهرة عمرو خالد في سياق عالمي تأثر بهيمنة خطاب الليبرالية الجديدة عالمياً وعلى كافة الأديان، فيرى أنها تقترب كثيراً من جماعات الإيمان الجديدة المسيحية التي انتشرت مؤخراً في الغرب في رفضها للمؤسسات الدينية التقليدية واستقلالها عنها، وفي طابعها الفردي المستقل البعيد عن الجماعية، وفي تركيزها أيضاً على المشاعر والعواطف»[٢].

وجمهور «الدعاة الجدد» بحسب وصف الدراسة: «في مجمله من غير المؤطرين تنظيمياً أو سياسياً، ويتشكل من مجموعات صغيرة أقرب إلى مفهوم الشلة (الذي تنتظم وفق العلاقات بين أبناء النخبة) منه إلى مفهوم الجماعة والتنظيم؛ فحضور الدروس كان دائماً ما يتم عن طريق مجموعة الأصدقاء أو (الشلة)، وهو جزء من تفاعلات العلاقة بين أعضاء هذه المجموعة التي مثلما تذهب

---

(١) عمرو خالد. . الطبعة الإسلامية لليبرالية الجديدة!، لحسام تمام. (موقع مركز دراسات الظاهرة الإسلامية).

(٢) المرجع السابق.

لحضور الدروس تذهب أيضاً إلى المصيف والنادي والسينما وأداء العمرة في الأراضي المقدسة»[١].

و«تؤكد الدراسة أن ظاهرة عمرو خالد والشيوخ الجدد مرشحة للتكرار ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي والإسلامي بفعل التفاعلات المستمرة والمكثفة بين الخطاب الإسلامي وبين قيم وأفكار وتوجهات الليبرالية الجديدة»[٢].

هذا أنموذج للدراسات الغربية المتابعة للخطاب الديني في مجتمعاتنا، وأساليب هذا الخطاب وأبعاده وخلفياته، كل ذلك سعياً وراء استغلال أو توجيه أو مصادمة... هذا أو ذاك التيار والتوجه!

في عام ٢٠٠٣م وفي «جامعة الدفاع الوطنية» بواشنطن ضمَّ اجتماع لقيادات رفيعة المستوى في القيادة الأمريكية: مديري الأزمات من البيت الأبيض، ودبلوماسيين من وزارة الخارجية، ومتخصصين في العمليات النفسية من وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون)، وعدداً من الخبراء، لمناقشة استراتيجية جديدة لمعركة موازية للحرب على الإرهاب، وهي معركة (القلوب والعقول)، فقد شعرت الإدارة الأمريكية عقب حربها في أفغانستان ودخولها العراق بفشل سياستها العسكرية في المنطقة بحيث خلق لها عداء عاماً وعارماً!

ويأتي هذا الاجتماع في سبيل اتخاذ سياسة مواجهة مع

---

(١) عمرو خالد.. الطبعة الإسلامية لليبرالية الجديدة!، لحسام تمام. (موقع مركز دراسات الظاهرة الإسلامية).

(٢) المرجع السابق.

(الأصولية الإسلامية) التي تنامت وأصبحت فاعلاً مؤثراً ومحركاً رئيساً في المنطقة. وكان نتاج هذه الاجتماعات تصديق البيت الأبيض على استراتيجيات سرِّية جديدة بهدف الوصول إلى العالم الإسلامي، باعتبار أن ما يجري فيه ينعكس بالضرورة على أمن الولايات المتحدة الأمريكية القومي ومصالحها الاستراتيجية. وتدعو هذه الاستراتيجيات للعمل من خلال ثلاثة محاور: الأمم الإسلامية المعتدلة، والمؤسسات ومجموعات الإصلاح لتعزيز القيم المشتركة الخاصة بالديمقراطية، وحقوق النساء والتسامح.

ومن ثَمَّ انطلقت واشنطن في تمويل برامج إذاعية وتليفزيونية إسلامية، ومناهج دراسية في مدارس إسلامية، ومناشط أخرى مختلفة تستهدف تيارات وقيادات ومؤسسات دينية وتهدف لتعزيز ما وصف بأنه (الإسلام المعتدل) فيما لا يقل عن عشرين دولة إسلامية.

بعد ذلك بسنوات صدر عن مؤسسة (راند)، دراسة بعنوان «**بناء شبكات مسلمة معتدلة**»، في إطار تحديد شركاء رئيسيين تعتمد عليهم الجهود الأمريكية في تحسين صورتها وتحقيق أهداف مواجهتها مع التيارات الأصولية في المنطقة وحربها على ما تصفه بالإرهاب.

وقد كُرِّس الفصل الخامس من الدراسة والذي جاء تحت عنوان «خارطة الطريق نحو بناء شبكات معتدلة بالعالم المسلم» لهذا الغرض؛ إذ ترى الدراسة أن ثمة صعوبات ـ أمام المنظمات الغربية الساعية لتنظيم دعمها للمسلمين المعتدلين ـ في تمييز الحلفاء المحتملين من الأعداء. ذلك أن المسلمين يختلفون بمختلف أنحاء

العالم المسلم بدرجة كبيرة، ليس فقط في آرائهم الدينية، وإنما أيضاً في توجهاتهم السياسية والاجتماعية، بما في ذلك وجهات نظرهم حيال الحكومة ومدى أولوية الشريعة مقارنة بالمصادر الأخرى للقانون، وحقوق الإنسان، خاصة حقوق المرأة وحقوق الأقليات الدينية، وما إذا كانوا يؤيدون أو يبررون أو يتساهلون إزاء العنف الرامي لتعزيز أجندة سياسية أو دينية.

و«تعرف هذه الدراسة المسلمين المعتدلين بأنهم من يشاركون في الإيمان بالأبعاد الأساسية للثقافة الديمقراطية، ويتضمن ذلك تأييد الديمقراطية وحقوق الإنسان المعترف بها دولياً واحترام التنوع وقبول المصادر غير الطائفية للقانون ورفض الإرهاب والأنماط الأخرى غير المشروعة من العنف».

وتبني الدراسة توصيفها للمعتدلين من منطلق أن هناك بعض المسلمين يؤمنون بوجهة النظر السائدة في الغرب، والتي ترى أن القيم الديمقراطية تتميز بطابع عالمي لا يرتبط بأطر ثقافية أو دينية بعينها! وأن منهم من يرى أنه لا بُدَّ للديمقراطية في العالم الإسلامي أن تعتمد أساساً على التقاليد المحلية والموروث الإسلامي الديني والتاريخي وأن تراعي الخصوصية الاجتماعية لهذه البيئة، ومن ثمَّ يسعى هذا الفريق إلى تفسير النصوص الشرعية والقصص التاريخية بأسلوب يدعم قيم الديمقراطية. وفي كلتا الحالتين ترتكز أهمية نظرة هذين التيارين في النتيجة، فبغض النظر عن الجذور التي يريد كل تيار استقاء القيم الديمقراطية منها إلا أنهم يتفقون في المحصلة على أهمية هذه القيم وضرورة تطبيقها!

لذا فإن الدراسة تعطي لمؤشر النظر للشريعة الإسلامية باعتبارها المصدر الوحيد لتشريع القوانين وصياغة المناهج وصناعة المجتمع أهمية في تحديد الاعتدال، فالمعتدلون ليسوا بالضرورة معادين للشريعة لكنهم يرونها أحد مصادر المرجعية الفكرية والقانونية والقيمية؛ وبالتالي فإن موقف المسلم في الجوانب السياسة والمجالات الاجتماعية وقضايا المرأة تُعدُّ مقياساً فعلياً لاعتداله من عدمه!

ومن هنا تأتي ضرورة الإجابة على جملة من الأسئلة التي أوردتها الدراسة كمعايير للاعتدال لأي جماعة أو تيار! ووفقاً لهذه المعايير تحدد الدراسة الشركاء المحتملين للولايات المتحدة الأمريكية، إضافة للعلمانيين، في المسلمين الليبراليين، والعناصر التقليدية المعتدلة، بما في ذلك الصوفيون. وتقصد الدراسة بالمسلمين الليبراليين أولئك الذين تقوم أيديولوجيتهم الدينية على أساس ديني وفي الوقت الذي يتبعون أجندة متوافقة مع الأفكار الغربية المرتبطة بالديمقراطية والتعددية! مهما كانت انتماءاتهم المختلفة.. وطبقاً لوجهة نظرهم، يجب أن تكون الحكومة الإسلامية ديمقراطية! كما أن الشريعة نتاج للظروف التاريخية المرتبطة بوقت ظهورها وعليه يجب تحديثها!

وتفترض الدراسة ـ فيما تفترض ـ أن بعض الجماعات الإسلامية قد تطورت بحيث باتت تدعم الديمقراطية التعددية، وحقوق المرأة، والحرية الفردية، كما أنها باتت تتحول من التقليدية إلى الحداثة! وترفض العنف! ومن ثَمَّ فهي ترى أنه من الأفضل توجيه برامج بناء القدرات والموارد نحو المنظمات

المسلمة المعتدلة والليبرالية، ولكن بشكل غير مباشر وظاهر!

وتقترح في هذا الشأن، من بين الفئات المستهدفة، الأكاديميون المسلمون الليبراليون في الجامعات ومراكز الأبحاث، حيث يستطيعون من خلالها التأثير على آراء الآخرين، ورجال الدِّين من الشباب المعتدلين الذين سيشكلون القيادة الدينية المستقبلية، نظراً لتأثير هؤلاء في خلق تيار معتدل ذو قاعدة شعبية عريضة، وغيرهم من الصحفيين والكتّاب والمعنيين بالاتصالات والنشطاء الحقوقيين؛ على أن يتضمن مشروع بناء الشبكات المعتدلة جهوداً لربط المجموعات العلمانية والإسلامية المعتدلة (الليبرالية) الصغيرة بعضها البعض في بيئتها، وبالجماعات المشابهة في الخارج.

٧ ـ رغبة الجماهير:

إن الجماهير ميالة بطبعها إلى تدين غير باهض التكاليف، وما توجيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ للرسول محمد ﷺ (في قصة المعراج والإسراء) ليطالب ربه بالتخفيف في شأن الصلاة، نظراً لما قد عالج من بني إسرائيل، إلا دليل على ذلك.

وإذا أضفنا إلى هذه الطبيعة الخوف على المصالح والمتع الدنيوية والميول إلى الترف والشهوات.. فإن الأمر يكون آكد؛ وتبقى هذه الجماهير تبحث عمن يسهل عليها التكاليف والتبعات.

«إن هذا التيار الجديد من الدعوة ظهر ليوفِّي بمتطلبات الشباب الذين ينفتحون أكثر فأكثر على الثقافة الغربية؛ فهذا الشباب الممتلئ بالأفكار المختلفة غير المتناغمة أنتج هذه الثقافة الجديدة من التدين، التي تعبر عن نفسها من خلال تجديد في الأسلوب

والذوق واللغة والرسالة»[١].

«إن الشباب هو الذي خلق لنفسه هذه الثقافة الدينية الجديدة التي تتمحور حول ظاهرة «الدعاة الجدد» كنوع من (الموضة)؛ فهي منفذ للتنفيس عن احتياجات إنسانية متناقضة: احتياجات للتغيير والتأقلم، للتميز عن الآخر والتشابه معه، للتفرد والالتزام بالمعايير الاجتماعية، وبالتالي فإن التمسك بهذا النوع من التدين الإيجابي يسمح للشباب بأن يحافظ لنفسه على هوية تميزه، وفي الوقت نفسه يتعامل مع التغيير الحادث من حوله، وهو إذ يفعل ذلك يتحرك في إطار المعايير الاجتماعية ولا يضطر إلى خرقها»[٢].

وترى دراسة «باتريك هاني» حول الإسلام كظاهرة اجتماعية: «أن نموذج عمرو خالد يمثل تلبية للاحتياجات الدينية للنخب والطبقات العليا في مصر، ومحاولة لتقديم إسلام بمواصفات خاصة لأبناء هذه الشرائح التي تستقر بأعلى الهرم الاجتماعي في مصر، بما يلبي رغبتها الحقيقية في التدين وفي ألا تحمل شعوراً بالذنب أو إحساساً بالتقصير يدفعها إلى إعادة النظر في وضعها الاجتماعي وما يكفله لها من امتيازات لا تتاح للطبقات الأقل، وهو تدين ذو مواصفات خاصة لن تجده هذه الشرائح في خطاب الشيوخ التقليديين»[٣].

---

(١) الشباب المتدين بين عمرو خالد وعمرو دياب!، لعاصف بيات.

(٢) المرجع السابق.

(٣) عمرو خالد.. الطبعة الإسلامية لليبرالية الجديدة!، لحسام تمام.

نماذج من الدعاة الجدد

ـ **عبد الله جيمنستيار**[١]: داعية إسلامي من إندونيسيا، يبلغ من العمر ٤٢ عاماً، بدأ الظهور على شاشة التلفزيون منذ عدة أعوام، لكن شعبيته تصاعدت في وقت قصير جداً؛ ليزيد جمهوره عن ٦٠ مليون شخص يتابعون محاضراته الأسبوعية عبر التلفزيون، إضافة إلى شرائط الكاسيت وأفلام الفيديو والكتب، وقد وصلت شعبيته إلى حد أن يصبح ثمن الساعة الواحدة التي يقدمها من البث التلفزيوني إلى ١٠٠ ألف دولار، وذلك بحسب جيمنستيار نفسه. وهو يمتلك ١٨ شركة، من بينها قناة فضائية، ومحطة راديو، ودار نشر، واستوديو تسجيلات، ووكالة إعلان، ومكتب سياحة، ويصل الدخل الشهري لإحدى هذه الشركات ٣٠٠,٠٠٠ دولار.

ـ **حمزة يوسف هانسن**: أمريكي الأصل، ومن عائلة مثقفة؛ والده أستاذ لمادة الإنسانيات في جامعة هارفارد، وأمه خريجة

---

(١) انظر: «الأخ جيمنستيار.. داعية أندونيسي.. نيو لوك»! ترجمة وإعداد: نهى الإبياري؛ في موقع «إسلام أون لاين».

جامعة بيركلي العريقة، أما جده فكان عمدة لإحدى مدن كاليفورنيا. وهو صاحب فكرة برنامج «يللا شباب» الذي يذاع على MBC، وهو البرنامج الذي نجح في مخاطبة جماهير الشباب من خلال محتوى ديني جذاب.. وهو ما أكده خالد طاش أحد معدي البرنامج لجريدة الوطن السعودية(١).

ـ **عمرو خالد**: من مواليد عام ١٩٦٧، بمدينة الإسكندرية ـ مصر. حاصل على بكالوريوس تجارة من القاهرة عام ١٩٨٨م، وعلى دبلوم في الدراسات الإسلامية، بمعهد الدراسات الإسلامية في القاهرة سنة ٢٠٠١م. وهو يحضر لدراسة الدكتوراه في السيرة النبوية من جامعة ويلز ـ إنجلترا. يعمل كمراجع حسابات، وشريك بمكتب مراجعة. وهو عضو بجمعية المحاسبين والمراجعين المصرية.

بحلول عام ١٩٩٩م صار عمرو خالد يلقي ٢١ درساً أسبوعياً في منازل شخصيات مرموقة، وارتفع هذا العدد في رمضان ليصل إلى ٩٩ درساً في الأسبوع الواحد، ولقد حققت شرائط الكاسيت المسجلة عليها دروسه رقماً قياسياً في مبيعات معرض القاهرة الدولي للكتاب لعام ٢٠٠٢م، ولم يقتصر رواج هذه الشرائط على القاهرة وحدها بل صارت توزع في فلسطين وبيروت ودول الخليج، وقد أسس شركات عدة لتوزيع الكاسيتات.

قدم العديد من البرامج في القنوات الفضائية، ولا يزال،

---

(١) انظر: «حمزة يوسف.. الداعية الأمريكاني المزدوج!» بقلم أحمد زين؛ في موقع «إسلام أون لاين».

يعمل مستشاراً لدى محطة «اقرأ» التلفزيونية السعودية، وطلب منه الانضمام إلى مجالس إدارة في بعض البنوك الإسلامية؛ ولديه موقعه الخاص على الإنترنت.

- **ماجدة عامر**: داعية شابة من الطبقة الثرية في القاهرة، مشغوفة بالشاكراس واليوغا والحمية العضوية والممارسة التأملية. وتلقى محاضرتها في الإسلام والطب البديل صدى حماسياً لدى نساء المجتمع الراقي اللاتي يقصدن مسجد أبو بكر الصديق القائم في ضاحية هليوبوليس المترفة.

- **الحبيب علي الجفري**: من مواليد جدة بالمملكة العربية السعودية، في عام ١٩٧١م. والده هو عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجفري، رئيس حزب رابطة أبناء اليمن (رأي)، عائلته تشتغل بالسياسة، تتلمذ الجفري على يد عدد من دعاة الصوفية في أرض الحجاز، وهو يدرس بدار المصطفى بتريم، أشعري المعتقد، شافعي المذهب، صوفي الطريقة! له العديد من البرامج التي يقدمها على القنوات الفضائية، وموقع خاص على الإنترنت.

وهؤلاء الدعاة يمتازون بما يلي:

- كثافة الدروس والمواعظ التي يلقونها، وتوفيرها على الكاسيت وشريط الفيديو والسيديهات، الأمر الذي ينوع الوسائل والشريحة المستهدفة.

- الحضور القوي في القنوات، كقناة «اقرأ» و«أوربت» و«دريم» و«إل بي سي» و«إم بي سي»! ويؤخذ على هذه القنوات

أنها في غالبها منحلة، وبعيدة عن الصورة الناصعة للإعلام الإسلامي الملتزم!

- قيامهم بتوجيه طاقات الشباب في أعمال ومشاريع وتقديم المشورات والخبرات لهم، بل وتذليل الصعاب لهم من خلال بعض التواصل والجهود.

- أسلوب التسويق الذي يعتمدون عليه في مخاطبة الجماهير، وتنوع الخطاب بما يلائم بعض النخب.

- استخدام الإنترنت للتعامل مع المدعوين بشكل أكبر، وكذلك استخدام الهاتف الجوال، والرسائل.

«التدين الجديد» وأثره في تمرير ثقافة التغريب في مجتمعاتنا

عن مدى تأثير هذا «التدين الجديد» في المجتمع يقول أحمد زين: «وأنا أكتب هذا المقال وأجمع مادته كنت حذراً تماماً أن تكون لدي فكرة مسبقة أحاول التدليل عليها؛ لذا فقد حرصت بالغ الحرص على تجميع أكبر قدر من حديث هذه الشريحة عن نفسها من خلال تجاربهم واستشاراتهم التي يعرضونها على مشاكل وحلول للشباب في (إسلام أون لاين.نت)، فهذه فتاة مصرية في العشرين من عمرها تقول: تعرفت على شاب في الجامعة على مستوى عالٍ من (التربية) و(الأدب)، وقامت بيننا علاقة حب لكن في إطار «الاحترام» و«المحافظة» على (تقاليد ديننا). ولكن بعد (ارتباطنا) بعام ونصف تطورت العلاقة بيننا بدأت بلمسة ثم قُبل. وهذا حصل ٣ مرات، والآن أنا وهو ندمنا على ما حصل وقررنا أن نتوب إلى الله، والحمد الله أننا الآن (محترمان)، لكن المشكلة أنني أخاف عقاب الله، وأريد أن أرضي ربي بأية طريقة، وقلت (لحبيبي): إنني أريد الانفصال عنه لكي نرضي ربنا، ملحوظة:

أخلاقي أنا وحبيبي محترمة جداً، وكان من المستحيل أن نفكر في أن نفعل هذا الخطأ، ولكن كان غصباً عنا. والله العظيم ده مش من طبعنا أبداً.

فالكلمات التي بين التنصيص ـ والتنصيص من عندي ـ يمكن أن تعطي مؤشراً واضحاً على الارتباك في إدراك مدلولات هذه الكلمات، فالتربية والأدب والمحافظة وتقاليد الدين لا تتنافى تماماً مع القبل واللمسات!! كما أن الاحترام لا يمنعها من إطلاق كلمة حبيبي عليه!! والمسوغ طبعاً واضح؛ فهي ترى في علاقتهما المحرمة تلك «ارتباطاً»، وهي كذلك تخلي مسئوليتهما عما حدث؛ فالأمر كان غصباً عنهما!

وشاب (ملتزم) آخر يقول: أنا شاب ولله الحمد ملتزم دينياً، أحببت فتاة منذ ٣ سنوات، وهي تصغرني بعامين، ووعدتها بالخِطبة هذا العام، والكل وافق: والداها وأبي.. لكن أمي عارضت، وأنا أحاول إقناعها منذ عامين، ولم ترضَ، وأنا لا أرغب بالخروج عن رضا أمي خوفاً من الله ﷻ. ولكن للأسف حدث بيني وبين هذه الفتاة عدد من الخلوات في منزلهم، تخللها عدد من القبلات، بالإضافة إلى رؤيتي لصدرها مرتين، وقد أقلعنا عن هذا خوفاً من الله، والحمد لله أنه لم يتطور الأمر أكثر من ذلك، وبعد صراعات مع أمي قررت ترك هذه الفتاة رغم حبي الشديد لها إرضاء لوالدتي، وأنا عازم على خطبة غيرها لأنساها وأبدأ حياتي من جديد بمباركة من والدتي...

وهذا مثال آخر صارخ؛ فالفتى تختلط عنده المفاهيم الدينية

والأخلاقية ليخرج لنا خليطاً من الالتزام الديني برائحة القبل وطعم اللمسات المحرمة، وهو يستدعي الدين في بر الوالدين وعدم الرغبة في الخروج عن رأي أمه، لكنه لا يتورع أن يركل أحكامه إذا رأى صدر فتاته، وهو دائماً يشعر برضا طاغٍ عن نفسه؛ فهو ـ كما يصف نفسه ـ والحمد لله ملتزم دينياً، وإذا اقترف المحرمات فهو يحمد الله عن أن الأمر لم يتطور للزنا!!

ونموذج آخر هو شاب يرى أنه داعية ويعمل مع عدد من «الإخوة»، لكن هذه الدعوة لا يجد فيها أدنى مشكلة أن يمارسها مع بنتي عمته اللتين في مثل عمره تقريباً ـ المرحلة الجامعية ـ ويقول: طوال خمس سنوات مضت، وأنا أزور عمتي تلك، وأجلس مع ابنتها وأخواتها وإخوتها الرجال كصلة رحم، وبعد فترة أحسست أن الفتاتين تكبران، ودخلتا الجامعة فخفت عليهما من الفتن، وعزمت أن آخذ بيدهما إلى طريق الله ﷻ فبدأت أولى تلك المراحل، وهي كما تعلمنا: الحب في الله، فكنت أجتمع بهما وأحدثهما عن صلة الرحم، وأسأل عن علاقاتهما في الكلية وأنصحهما، ولكن كنت أركز على إحداهما أكثر؛ لما أجده فيها من استجابة وحسن فهم...

فالداعية الصغير يحب ابنة عمته في الله وينصحها... وهو لا ينكر أنهما تعلقتا به، وهو نفسه يعترف أن هناك بعض التجاوزات!!

يقول الشاب: كانتا دائما تنتظران مجيئي لنتحدث، ولكن كان هناك تجاوز أحياناً في مسألة الضحك معهما، وأنهما كانتا تجلسان بلا غطاء رأس، وكنا أحياناً نختلي أنا وهي ولكن في نفس البيت، والكل يمر علينا طلوعاً ونزولاً!

لكن الداعية الهمام يتحمل كل هذه التجاوزات في سبيل الله!! فيقول: لكن كنت أجاهد(!!) حتى لا أنفرهما مني، وكنت أعمل على كسب ودهما وحبهما حتى يصل كل ما أقوله بسهولة.

لقد درس الداعية الشاب مفاهيم الدعوة: الحب في الله والجهاد وعدم تنفير المدعوين وكسب ود المدعوين، لكنه في النهاية خرج من ذلك بنتيجة غاية في الغرابة»[١].

ويضيف أيضاً: «وللتوضيح قد يكون المشهد الذي رأيته في أحد الشوارع القاهرية معبراً جداً: فتاة ترتدي حجاباً سابغاً، تقود سيارة حديثة، والمسجل عالي الصوت يبث أغنية عالية تقول فيها المغنية الشابة: محتاجة لك.. محتاجة لك»[٢].

هذه بعض الآثار التي لمسها الكاتب من خلال قراءاته، والأمثلة في ظني أكثر من ذلك والآثار أعظم وأعمق، وقد سبق وأشرنا إلى بعض المظاهر التي تصاحب هذا التدين المزعوم، ولا حاجة لذكرها هنا!

وفي نظري أن هذا الأثر الذي يحدثه «المتدينون الجدد» في الأوساط الاجتماعية بتطبيع السلوكيات والمظاهر الغربية في مجتمعاتنا! يتم عبر عدة أمور منها:

الكلام عن الحريات الخاصة وحقوق الإنسان (والمرأة)،

---

(١) المتدينون الجدد وفقه القص واللصق، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

(٢) المرجع السابق.

بلهجة إسلامية ومضامين أجنبية تشربها هؤلاء من أوساطهم الاجتماعية، ومن خلال ثقافاتهم المتلقاة من الفضائيات والإنترنت والدراسة في معاهد اللغات وكليات الإدارة!

ومن ذلك، ومما يلاحظ على هؤلاء المتدينين مع وجود الهم للإسلام، كما يقول أحمد زين: «التعاطي ونمط المعيشة والتصورات تتم وفقاً لنمط الحياة الغربية بصورة طاغية ولافتة، وأعتقد أن الرجوع للأحكام الفقهية يمكن أن يدين نموذجاً هذا توجهه، كما أن هذه الفترة التي نحياها كفيلة من الناحية الحضارية أن تُوجه نحو أنماط أخرى من الحياة مختلفة عن هذا النموذج، كما أتصور أن التعاطي مع الأغاني والسينما ـ الغربية خاصة ـ وغير ذلك لا يُرْضَى عنه فَقهياً بجملته»[١].

وفي أقل الأحوال، أصبحنا اليوم نجد من الأناشيد الإسلامية ما لا تفرق بينها وبين الأغاني الغربية! وبعضها تقدم في قوالب «الفيديو كليب» بوجود المخالفات الشرعية المعلومة!

ومن ذلك، الاهتمام بالثقافة الإدارية والتربوية والاجتماعية والنفسية تحت تأثير رؤية الغرب ونظرياته فيها! فمهارة مثل (لغة البرمجة العصبية) ـ أو ما اصطلح عليه بـ الـ (N.L.P) ـ تقام لها الدورات باهظة التكاليف، ويحضرها المئات! وتنال من الاهتمام والمتابعة أضعاف ما تناله حلقات التحفيظ وحلق العلم!

---

(١) المتدينون الجدد وفقه القص واللصق، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

ومن ذلك، تحول الفنانات «التائبات» أو الفتيات «المتدينات» ـ من هذه الفئة ـ إلى تمثيل أدوار إسلامية أو تقديم برامج دينية ـ زعموا ـ لخدمة الدعوة! «بل ظهرت المحجبات في الأعمال الدرامية وانتشرت فيه البرامج الدينية حتى في أوقات ذروة المشاهدة، ووصل الأمر إلى أن تكون البرامج الدينية من السهرات الأساسية نور على نور، ورب اشرح لي صدري»!![1].

بل المثير حقاً أن بعضاً من الأخوات اللاتي يظهرن في برامج دعوية أو اجتماعية، من المنتسبات لهذا التيار أو المتأثرات به، يظهرن بزينتهن كاملاً: المكياج، الألوان، الإكسسوارات، الثياب المزخرفة؛ ولو كان البث ينقل لنا روائح الاستديو لربما كُنَّ معطرات أيضاً!

إن هذه المسائل والمظاهر لم تأت من فراغ، فهي حصيلة الفقه «الرخيص»! عندما يلتقي مع الشريحة المترفة والطبقة المتمتعة! وعندما لا تراعي الفتاوى طبيعة الانفتاح الإعلامي والتحرر الاجتماعي والهزيمة النفسية التي يعيشها المسلمون تحت وطأة الغزو الفكري والثقافي من الغرب والفشل الداخلي في بلداننا!

أما عن أثر هذا التيار في الحركة الإسلامية، يقول أحمد زين: «إنه كما أثرت الحركة الإسلامية على هذه الموجات الشبابية المتدينة؛ فإنني أزعم أن هؤلاء المتدينين الجدد يؤثرون وسيؤثرون

---

(١) المتدينون الجدد من الـ«تيك أواي» إلى الـ«وان كليك»، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

على الحركة وبرامجها وخططها»[١].

ويشرح ذلك بقوله: «فقد بدأ التأثير في الحركة الإسلامية بالفعل خاصة في الجانب الاجتماعي الذي هو وثيق الصلة بالجانب الفقهي؛ فقد أصبح داخل الحركة الإسلامية الآن شبه حراك في هذين الجانبين، خاصة أن الحركة قد دعمت نمطاً معيناً خلال الثمانينيات.

مما يلفت النظر الآن ـ مثلاً وليس حصراً ـ أن كثيراً من السيدات والفتيات المتنسبات للحركة قد استبدلن بـ«الخمار» التقليدي الذي تعود عليه المجتمع المصري والذي كانت توصف كل من تلبسه بـ«الأخت». . استبدلن به غطاء الرأس والصدر القصير المتعدد الأنماط والألوان. هذا التغير وإن أخذ شكلاً مظهرياً إلا أنه ينبئ عن حراك ما، هذا الحراك ربما يكون تم تحت ضغط الأناقة التي يبدو عليها حجاب المتدينات الجدد، وانخراط الكثيرات منهن في مناشط الحركة، وربما تحت ضغط الانفتاح على أشكال الحجاب المختلفة (الإيراني والخليجي والأوربي. . .)، التي وسعت الخيارات أمام هذا الجمهور الذي تعود على نمط واحد من الاختيارات.

ولكنه في رأيي يبقى تأثراً بالتدين الجديد، وثورة على النمط التقليدي الذي دعمته الحركة ـ ولو بطريق غير مباشر ـ في فترة الثمانينيات.

---

(١) أثر المتدينين الجدد على الحركة الإسلامية، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

ومن هذا التأثير تغير الأنماط السائدة في المناشط الاجتماعية؛ كالأفراح والزيارات؛ فأصبح من الطبيعي والمعتاد أن تكون هناك أفراح مختلطة أو رحلات مشتركة، أو ما شابه»[١].

ويضيف: «ثانية هذه الملاحظات العابرة حول التأثيرات أيضاً: التعامل مع الفنون؛ فالقطاعات الشبابية داخل الحركة الإسلامية أصبحت تتعامل مع الفنون بقوة؛ بل أصبحت بعض التزكيات داخل الحركة توصي بمشاهدة بعض الأفلام السينمائية والأعمال المسرحية، وكثيرة هي النقاشات حول الأعمال الفنية حتى الهوليودية منها داخل مواقع الإنترنت، وساحات الحوار المتعلقة بالحركات الإسلامية»[٢].

ويؤكد الكاتب: «إن تدين بعض أفراد هذه الطبقة لا بد أن يغير - في ظني - خريطة الحركة الإسلامية واهتماماتها؛ فهؤلاء الأفراد لهم قدرات وطاقات ومهارات مختلفة كثيراً عن مهارات الأجيال التي يمكن أن نقول: إن الحركة الإسلامية قد تمرست في التعامل معها»[٣].

إن لهذا التيار زخمه الدعائي وحضوره الإعلامي، وهو سيشكل بالطبع تحدياً أمام العلماء والدعاة في رد الناس إلى «التدين الصحيح»، وقد يشغل الساحة مرة أخرى في الحديث بقضايا فقهية

---

(١) أثر المتدينين الجدد على الحركة الإسلامية، لأحمد زين. (موقع إسلام أون لاين).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

ومسلمات عقائدية وآداب اجتماعية ـ تجاوزت الدعوة معالجتها! ـ لصالح الرؤية التي يقدمها!

وسوف يعطي هذا الجو من التدين لضعفاء النفوس، والذين قال الله فيهم في سورة الأحزاب: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]! فرصة للاستفادة من هذه المظاهر واستغلالها في الحرام! وتطبيع «خطوات الشيطان» في نفوس الشباب والشابات!

إن ما يقوم به «المتدينون الجدد» ـ من الجهود المتناثرة ـ لن يكون في أحسن أحواله مشروعاً نهضوياً للأمة! طالما وأنه ينحرف بقيم الدين وأحكامه ليطابقها ويطبعها مع المناهج الأرضية! ولن يكون بديلاً عن العلاج العقائدي المرتكز على التوحيد والإيمان والاتباع!

والواجب على هؤلاء الرجوع إلى مرجعية الأمة من العلماء والدعاة الذين عرف عنهم تحري الحق واتباع الدليل وسلوك جادة الصواب. ولهم على العلماء والدعاة النصح والتوجيه والمساندة والتعاون معهم في الخير والإحسان.

وبعيداً عن تشاؤم البعض من مصير هذا التيار، فإن الواجب أن لا يبخس الناس حقهم ولا تغمط مواهبهم وقدراتهم، فالاستفادة من هذا المخزون الضخم من هؤلاء الشباب هو في صالح الأمة والدعوة معاً! مع مراعاة أنهم بحاجة إلى حكمة في التعامل، وبلاغة في الأسلوب، واعتراف لأهل الفضل بفضلهم!

وهنا كلمة جميلة أسجلها للكاتبة «نهى الإبياري» وهي تتحدث عن هذه الظاهرة: «إن علينا أن نتعلم أن نحب الأشخاص ونؤمن

بالأفكار؛ لأننا عندما يختلط علينا الأمر فنؤمن بمن نحبهم ننسى أنهم بشر خطاءون، وعندما يسقطون نسقط معهم ويسقط ما آمنا به من أجل سواد عيونهم. الذي يحدث: أننا ننسى هل آمنا بما يقولون لأننا أحببناهم، أم أحببناهم لأننا آمنا بما قالوا، والفرق جد كبير». وهي تتفق مع الأثر المروي عن الإمام علي ﷺ: «اعرف الحق تعرف أهله»!

التجديد في الدِّين:

لعل الأمر يلتبس عند البعض بين الموقف من «التدين الجديد» والموقف من «التجديد في الدِّين»، وهذا ناشئ بالطبع في خلطهم بين المفهومين، نتيجة ما يطرحه دعاة «التدين الجديد» أحياناً أو لتقارب المصطلحين في اللفظ.

ويقوم مفهوم «التجديد في الدِّين» على نص شرعي ثابت أُثر عنه عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث الذي رواه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه[1]، أنه ﷺ قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**».

وفي ضوء هذا النص النبوي الشريف تحدث العلماء قديماً وحديثاً عن مفهوم التجديد في الدِّين، وقد ذهبت مشاربهم في شرح هذا الحديث مشارب متعددة، ذلك أن طبيعة العقول البشرية الذهاب

---

(١) والبيهقي والطبراني، والحديث عن أبي هريرة، وقد صححه عدد من علماء الإسلام منهم: الحاكم وابن حجر ـ رحمهما الله تعالى ـ، والألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في العصر الحديث.

في أخيلتها فيما وراء النص في فضائها المضيء والميالة إليه عادة، بحكم القدرة العقلية والوجدانية، أو بحكم السياق الخارجي والبيئة المحيطة؛ أو بحكم الاثنين معاً.

والعمدة في فهم هذا الحديث هو ذلك القدر المشترك من دلالات الألفاظ الواردة فيه، والتي اتفق عليها غالبية أهل العلم الذين تحدثوا حول شرح هذا الحديث. فالحديث مما يعني الأمة بل يمسها في أهم خصائصها ومقوماتها ألا وهو الدِّين، ومن البدهي أن يكون نصُّ الشارع هنا قريباً وواضحاً ومهماً بحيث أن مساحة التأويل فيه تكون أضيق مما هي عليه في المسائل الفقهية المتعلقة بآحاد الأمة.

ولو جئنا على ألفاظ الحديث السابق: يبعث الله، مائة سنة، يجدد، الأمة، دينها؛ لوجدنا ابتداء ما يلي:

أولاً: تأكيد الوعد النبوي في هذا الحديث وتعظيم قدره: «**إن الله يبعث...**»، فالوعد من الله على لسان الرسول المبلغ وموجهاً للأمة المسلمة بصيغة البعث.

ثانياً: تعلق هذا الحديث بعموم الأمة على مدى عمرها منذ العصر الأول وحتى قيام الساعة، فهو وعد متكرر «كل مائة سنة»، ومُتَعَلَّق الوعد الدِّين من حيث تجديده للناس؛ وفي الحديث إشارة ضمنية بما يلحق الدِّين من تحريف أو تغيير أو تشويه أو نسيان أو غير ذلك مما تبتلى به الأمم.

ثالثاً: في الحديث بشرى برحمة الله لهذه الأمة أن يقيض لها من يعيدها إلى صوابها وتديُّنها الصحيح، ويعيد معالم الدِّين

وملامحه التي نالها التحريف أو التشويه أو النسيان. كما أنه دعوة ضمنية للأمة للقيام بهذا الواجب بشكل مستمر حتى لا تنحرف عن دينها الذي نزل عليها وتجلى في الدولة والمجتمع الإسلامي خلال عهد النبوة والخلافة الراشدة خير تجلٍ.

رابعاً: أن الحديث جاء بعبارة «الدِّين»، ومعلوم أن لفظة الدِّين أشمل في معناها ومدلولها في استيعاب العقيدة والشريعة والأخلاق والمفاهيم الإسلامية والجانب التطبيقي (التدين) في فهم الأمة وأدائها الحركي. وغالباً ما يطلق الدِّين في القرآن الكريم ويراد به أصول العقائد والشرائع المتفق عليها بين الأنبياء وأسس الفهم والتلقي لها، والآيات في ذلك كثيرة.

فإذا عُلم ذلك عُلم المقصود بالتجديد وأهدافه وأسسه ومجالاته وضوابطه وأهله، فإن أولى الناس بتجديد العلوم الطبيعية والإنسانية والتقنية هم أهلها المتخصصون فيها، فكذلك الدِّين لا يتصور أن يقوم بتجديده بهذا المعنى العميق والشامل والبليغ إلا علماء الدِّين أنفسهم، وإلا فإنَّ كثيراً مما لحق بالدِّين الإسلامي كان وراءه دعوى التجديد في الدِّين من سوى أهله.

لذلك فإن المقابل لهذا الحديث في مدلوله الحديث الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**، وفي رواية: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**؛ وحديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»**، وزاد النسائي: **«وكل ضلالة في النار»**.

فالتجديد بمعناه الأول قدر كوني ومطلب شرعي لا يقوم به إلا العلماء الراسخون في علوم الشريعة، سواء اتصفوا بالاختصاص أو بالموسوعية، أما التجديد بمعنى الإحداث أو (تحديث الدِّين!)، الذي ينادي به بعض المنسوبين للعقل (العقلانيون) أو النور (التنويريون) أو العصر (العصرانيون)، فهو تجديد في أصول الدِّين وقواعده وأحكامه القطعية وفي مفاهيمه الرئيسة المتعلقة بالإيمان والاتباع، وهو رغم كونه قدراً كونياً إلا أنه مذموم شرعاً فهو عين الابتداع المنهي عنه، خلافاً للاجتهاد الذي هو استيعاب المساءل الحادثة في حياة الناس بحكم يصدر من قواعد الشريعة ومقاصدها لغرض أن يتعامل معه الناس دينونة لله تركاً أو إتياناً، فهو ممدوح وسائغ بل مطلوب شرعاً.

ومن ثمَّ فإن المجددون (بمعناه الثاني) يرون أن مجموع الفقه (القديم)، كما يصفونه، ليس إلا تراثاً بشرياً غير مقدس، هكذا بإطلاق! وأننا بحاجة إلى فقه (جديد) يراعي المتغيرات والظروف والمستجدات الحالية، وهذا الفقه ـ فيما يبدو للمتابع لأطروحات هؤلاء ـ يستوعب جميع أبواب الفقه ومسائله، بدءاً بالسياسة الشرعية والجهاد والمعاملات والنكاح وانتهاء بالمواريث! بل يشمل عند بعضهم التصورات والمفاهيم الرئيسة في الدِّين بما في ذلك الكفر والإيمان! والتي عليها مدار الدِّين ونصوص الشرع.

وهذا الفصيل يعلن احترامه لهذا الموروث الفقهي والتشريعي، إلا أنهم يرونه (برمته) حصيلة اجتهاد بشري لفترة زمنية وحقبة تاريخية انقضت بكل ما فيها من ظروف وملابسات! وكأن الإنسان

ليس هو الإنسان في كل زمان ومكان.. فيه جوانب ثبات متعددة وجوانب تغير واسعة في جزئياتها ضيقة في كلياتها.

ولا ينقضي العجب بمثل هذه الأطروحات فهذا التجديد لا يختص بعلماء الشريعة بل هو موكول عند بعضهم للعامة وكل من لديه إلمام بسيط بالدين! كما أن المرجع فيه ليس النص ـ كما كان حاصلاً بين المذاهب الفقهية ـ وإنما مصالح المجتمعات وظروفها وقبول الأكثرية بمثل هذه التشريعات! حتى مع مخالفتها للمعلوم من أحكام الدِّين القطعية!

وإذا كانوا سابقاً يطالبون بالعودة إلى قراءة النص قراءة عصرية فإنهم اليوم قد عادوا من هذه القراءة خاليِّ الوفاض، لأن نصوص الشريعة لا تسعفهم فيما يريدون، فذهبوا يتحدثون عن (تاريخية) هذه النصوص وأن وراء هذه النصوص (روح ومقاصد) فهي ليست إلا ظواهر لها، ومن ثَمَّ بدأ الحديث عن فقه جديد يعبر عن (روح الشريعة ومقاصدها)! هكذا وبإطلاق وإلى الحدِّ الذي تصبح معه نصوص الوحي مجرد تشريع محدود الزمن مقصور الأثر لا قيمة له اليوم ـ إن بقيت له قيمة ـ سوى القراءة للتبرك، أما تشريعات العصر (الإسلامية) فهي تشريعات جديدة من صنع البشر لا يجمعها بالإسلام سوى أنها تعبر عن روحه ومقاصده![1].

وهكذا يتحول تجديد الدِّين إلى هدم له كلياً أو جزئياً وهو ما

---

(١) ألا يلزم هؤلاء أن يكيفوا العبادات بما يلائم طبيعة العصر واختلاف ظروفه؛ كيف لهم أن يحتفظوا بقدسية نصوص هذا الجانب من الفقه في حين تضيع قدسية أبواب المعاملات والجهاد وغيرها تخصيصاً!

يخالف الفهم البسيط لمدلول التجديد اللغوي، وكما يقول الشيخ القرضاوي، في كتابه (الصحوة الإسلامية، ص٤٥ ـ ٤٦)، فإن التجديد لا يعني هدم الشيء من أركانه وإحلال غيره محله! بل هو إبقاء الشيء على ما هو عليه أصلاً وتخليته مما علق به مما ليس منه وإعادة رونقه للناظرين دون أن يفقد من خصائصه شيئاً!

فالشيء يغير إما بإلغاء شيء منه أو إضافة شيء إليه أو بخلطه مع غيره أو بتشويهه.

فالإلغاء يشمل تكذيب نصوصه، أو جحود دلالاتها، أو تعطيل مؤدّاها، إخبارية كانت أو تشريعية، ويلحق بهذا الغالين الذين يأخذون بالتشدد بعض جوانب الدِّين ويتركون المقابل لها، وكذلك الجفاة الذين لا يأبهون بالدِّين إلا في شعائر ظاهرة وطقوس مادية محدودة.

والإضافة تشمل إضافة شيء من النصوص على الوحيين مما لا يثبت، أو إضافة دلالة لا تقتضيها النصوص، أو إدخال ما ليس في الدِّين منه: عبادات كانت أو حدوداً أو أحوال أو عادات تُلبَّس بلباس الدِّين! ويدخل في ذلك البدع والمحدثات وإدراج الأحاديث الموضوعة والقول بقرآن آخر أو بسورة غير ما لدى المسلمين في مصاحفهم اليوم!

أما الخلط فمظاهره كثيرة، فأصحاب العادات يخلطونه بعاداتهم، وأصحاب الأهواء يخلطونه بأهوائهم، وأصحاب الحيل والتشريعات الوضعية يخلطونه بقوانينهم، وذوي الأوهام والخرافات يخلطونه بأوهامهم وخرافاتهم! وهذا ما جعل الإسلام متباين الصور والأشكال رغم صدوره من مشكاة واحدة!

إن التجديد في الدِّين ـ كما أسلفنا ـ له مجالاته المختلفة، وهي لا تعني مجرد التجديد حال اندراسه بين الناس، بل إن التجديد في وسائل تبليغ الدِّين أو حفظه مع ظهوره من التجديد فيه، ولذا اعتبر عدد من الأئمة مجددين رغم أنهم كانوا في فترة ظهور الدِّين وانتشاره، كالبخاري والأئمة الأربعة وغيرهم. بل إن التجديد سِيما تدل على حيوية الأمة مع دينها، إلا أن طول العهد (مائة عام) يحدث ذلك الفتور في الأجيال اللاحقة الأمر الذي يستدعي تهيئة الله من يعيدها إلى هذا المسار، لذا ذهب عدد من العلماء ـ قديماً وحديثاً ـ أن التجديد يتجزأ وغير قاصر على فرد كما ذهب إليه البعض، فكلمة (من يبعث) لا تشير إلى فرد بقدر ما تشير إلى وصف[١]، وهذا ما نلمسه في العصور المتأخرة، كما أنه يتفق مع الخلاف القائم على تعديد (الأفراد) المعنيون بالتجديد!

والتجديد ـ كما يقول الشيخ يوسف القرضاوي ـ يكون في دين الأمة، أي تدينها، لا في «دين الله»[٢]، والتدين كما أسلفنا وضع بشري، وطبيعة البشر التجديد في أوضاعهم وأساليب عيشهم. ومن هنا تقبَّل المسلمون جمع القرآن الكريم في مصحف واحد وتنقيطه وتشكيله، وتدوين الحديث، وعلوم الشريعة، وتصنيفها، وتأصيل قواعدها وتفريع مسائلها على عناوين ومباحث، كما تقبلوا تحديث أساليب التعليم والتلقي والدعوة والجهاد عبر تاريخ الأمة.

---

(١) وقد ذهب إلى ذلك الإمام النووي ووافقه الحافظ ابن حجر، والحافظ ابن كثير ـ رحمهم الله ـ.

(٢) من أجل صحوة راشدة، ص٢٦.

بالتأكيد أن هناك حالات وقع فيها الخلط بين الأساليب القابلة للتجديد والأساليب القيمية التي جاء بها الشرع إلزاماً، وكان هذا الحيز محل صراع بين المجددين ومن ناوأهم، أو بين دعاة التحديث والعلماء الربانيون، غير أن قبول الأمة عموماً كان المحك الحقيقي والفيصل في اعتبار التجديد من الإحداث! وهنا أُذكِّر أن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ كانت تلقى تهجماً واسعاً في حينه، غير أنها مضموناً أثرت في كثير من حركات البعث والإصلاح في الأمة وكان الكثير من العلماء (كالصنعاني مثلاً) يدعون إلى ما كان يدعو إليه وإن لم يتخذوا مواقفه وتخطيطه، فكان هذا التوافق وهذا التأثر بمثابة القبول الفعلي للأمة، حتى استقر اليوم عند الكثير من علماء الأمة شرقاً وغرباً أنه من المجددين.

إذن هناك دون شك حيز من الالتباس، وهذا الحيز هو مما أشار إليه حديث: **«الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات...»**، وأهله هم الراسخون في العلم، وهو محل الاجتهاد الذي لا يرقى إليه سواهم، أما أصول الدين وقواعده وأحكامه الثابتة ليست محل تجديد من حيث هي أصول وقواعد وأحكام ثابتة. وبالتالي فلا عذر لمن ينادي بـ(رؤية أصولية جديدة)، أو (فقه جديد) على إطلاقه، أو (تغيير الخطاب الديني)! فوراء هذه الدعوات جميعاً زلات مهلكة تأتي على الدِّين بالنقض. ومن المؤسف أن يدعوا لهذه القضايا محدودي العلم الشرعي المنتسبين للدعوة وخطاب الجماهير رغبة منهم في الخير، دون أن يدركوا أن علماء الشريعة وفقهاؤها هم الأولى بهذا الأمر إن تطلب الأمر.

«التدين الجديد»..
و«الإصلاح[١] الديني» في أوروبا[٢]

يربط البعض بين «التدين الجديد» في ظروف نشأته وطبيعة دعوته، بحركة «الإصلاح الديني» التي شهدتها أوروبا في القرن السادس عشر وما يليه، والتي بفعلها نشأت الكنيسة «البروتستانتية» كإحدى المذاهب العقائدية المستحدثة في النصرانية.

و«البروتستانتية» حركة دينية نشأت عن حركة الإصلاح الديني ومبادئها. وهي تنطوي «على أفكار تحررية في الأمور الدنيوية والدينية، وكذلك في إعطاء الفرد حرية التقدير والحكم على

(١) استخدامنا لهذا المصطلح لا يعني إقرارنا بصحة مدلوله في هذا الشأن وإنما هو من قبيل الحكاية.

(٢) لمزيد من الفائدة يمكن الاطلاع على: الموسوعة العربية الميسرة؛ والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة؛ وموسوعة السياسة؛ وأوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ضمن (موسوعة تاريخ أوروبا العام). انظر المراجع في خاتمة هذا البحث.

الأمور، وفي التسامح الديني، وهذا مضاد للتقاليد وللسلطة الدينية؛ وروح البروتستانتية هي في مسؤولية الفرد تجاه الله وحده، وليس تجاه الكنيسة»[١].

وتعرفها «موسوعة السياسة» بأنها: «مجموعة العقائد الدينية والكنسية المنبثقة عن حركة الإصلاح الديني في أوروبا، التي رافقت ظهور وتطور الثورة الصناعية فيها»[٢]، إذن هي تلاءمت مع وضع جديد ومجتمع حديث بدت ملامحه تنحى بعيداً عن الدين وقريباً من المادية والنفعية والثراء والانفتاح، وانبثقت من رحم: «التسلط الديني والدنيوي للكنيسة، والنظام الإقطاعي المستبد في أوروبا، الذي كان يعيق نمو الثورة الصناعية والتجارية»[٣].

و«البروتستانت: فرقة من النصرانية احتجوا على الكنيسة الغربية باسم الإنجيل والعقل»، وتسمى ـ أيضاً ـ بـ(الإنجيلية)، «ويعتقدون أن لكل قادرٍ الحق في فهمه ـ أي الإنجيل ـ، فالكل متساوون ومسؤولون أمامه»[٤]، وهم: «يستمدون إيمانهم مباشرة من خلال تفسيرهم الذاتي لنصوص الكتاب المقدس، ومن هنا تعددت التأويلات وتباينت»[٥].

وقد بدأت في الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر،

---

(١) انظر: الموسوعة العربية الميسرة: ١/٤٩٩.
(٢) انظر: ١/٥٢٧، ٥٢٨.
(٣) موسوعة السياسة: ج١.
(٤) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ج٢.
(٥) موسوعة السياسة: ١/٥٢٨.

متأثرة بحركات الإصلاح السابقة لها؛ ومن ثمَّ تحولت من حركة إصلاحية داخل الكنيسة إلى حركة عقائدية مستقلة ومناهضة لها ـ أي الكنيسة[١] ـ.

و«نتيجة للحرية الفردية في فهم تفسير الكتاب المقدس لكل فرد من المؤمنين بالمذهب البروتستانتي انقسمت البروتستانتية إلى كنائس عدة»[٢]. وفي إحصائية عام ١٩٨٢م وجدت ٢٠٠ طائفة إنجيلية في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها[٣].

وهكذا فإن انطلاق أي فكر إصلاحي للدِّين بعيداً عن عهد النبوة، حيث يجري الفهم والتطبيق على عين وسمع وإدراك النبي المرسل فيصحح أي خطأ في الفهم أو الأداء ويقوِّم أي اعوجاج فيهما، مآلها إلى الاختلاف مهما حرص على تقديم قراءة جديدة وتفسير حديث يرضي رغبة الجماهير، لأن فهوم الناس ومدارك عقولهم متباينة في نهاية الأمر، وعندما يغيب النموذج الأمثل فإن الأخيلة البشرية تصنع نماذج مختلفة للأمثل، وتكون بمثابة الأصنام التي تزاحم عقيدة التوحيد!

هذا التطرف في المعالجة والتصحيح أدى إلى تطرف مقابل انقسم على الكنيسة البروتستانتية، حيث نشأت حركة «الأساسيون»، وهي: «حركة دينية محافظة قامت بين الطوائف البروتستانتية في

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٦١٥/٢.

(٢) المرجع السابق: ٦١٨/٢.

(٣) المرجع السابق: ٦١٨/٢.

أوائل القرن العشرين الميلادي. والغرض منها هو المحافظة على التفاسير التقليدية للكتاب المقدس، وحفظ عقائد الإيمان الأساسية من الأمور العصرية التي جاءت بها الاكتشافات العلمية»[١].

أبرز مؤسسي الحركة الإصلاحية بأوروبا:

من أبرز دعاة الإصلاح الديني في أوروبا «مارتن لوثر»، وهو ألماني كان يعمل أستاذاً للاهوت، كاثوليكي المذهب. أسس لوثر المذهب البروتستانتي، وانتقد الكنيسة وطالب بالإصلاح، لكن الكنيسة تواجهت معه، مما أدى إلى انفصال حركته عن الكنيسة الكاثوليكية، ودعا إلى الخضوع المباشر لسلطة الكتاب المقدس دون وسائط، بمعنى أن الكتاب المقدس من الوضوح للمؤمنين بحيث لا يختص القساوسة والبابوات بتفسيره، وقد قسمت آراءه العالم المسيحي بصورة جذرية.

ولد «مارتن لوثر» في ألمانيا عام ١٤٨٣م، وتحول من دراسته الجامعية إلى دراسات اللاهوت، ثمَّ عين قسيساً عام ١٥٠٧م. واجه انحرافات الكنيسة وطالب بإصلاحها، وألَّف في ذلك كتباً وجدت إقبالاً لدى الأوساط المتعلمة في ألمانيا.

أصدرت الكنيسة قراراً بحرمانه من منصبه، وإحالته إلى محكمة تفتيش، وكان سيواجه حكماً بالإعدام، لكنه هرب[٢].

وقد «ارتبطت اللوثرية في ألمانيا ارتباطاً وثيقاً بالحالة السياسية

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة: ١/ ١٨٦.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٢/ ٦١٥.

منذ أن دعا لوثر إلى إشراف الدولة على الكنيسة، ولذلك فإن الحكومة الألمانية تدخلت أكثر من مرة لحل الخلافات بين أعضاء الكنيسة أو للاتفاق مع كنائس المصلحة»[١].

ومن أبرز دعاة الإصلاح الديني «جون كالفن»، الذي ولد في فرنسا عام ١٥٠٩م. كان كالفن مثقفاً قانونياً، ثمَّ تحول إلى دراسات اللاهوت، خالف كالفن لوثر في عدد من القضايا منها: إشراف الحكومة على الكنائس، حيث طالب بأن تحكم الكنيسة نفسها بنفسها[٢].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن دعوات الإصلاح الديني في أوروبا لم تأت من تيار خارج على الكنيسة بل على العكس من ذلك نبتت داخل الكنسية ذاتها؛ ومن ثمَّ فإن على علماء الإسلام ودعاته أن يكونوا أحرص من أن يؤتوا من بين صفوفهم أو نتيجة أخطائهم وضيقهم بآراء مخالفيهم بشكل يدفع بهم إلى الخروج على الأصول وليس على الآراء الأرجح أو الذي عليه الجمهور.

إن ضيق بعض العلماء والدعاة والحركات والجماعات بآراء المخالفين، التي قد تنتقد أداء شخصيات أو رموز أو مواقف أو أداء أو رؤية أو كل ما يعكس فهم هؤلاء العلماء ذاتهم أو الحركات بعينها ـ يدفع بمن لا يجدون مساحة لآرائهم أو اعتباراً لوجهات نظرهم إلى النقمة التي قد تتجاوز الحدَّ غالباً، وبعض المذاهب التي

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٦١٨/٢.

(٢) المرجع السابق: ٦١٧/٢.

نشأت في الفقه أو في العقيدة أو في السلوك إنما نشأت نتيجة انغلاق المذهب أو من يمثله على آرائهم، لأن الثبات على الأصول ليس انغلاقاً بالأصل وليس بعيب ولا خطأ!

أسباب نجاح قيام حركة الإصلاح في أوروبا وانتشارها في العالم:

وهنا أشير إلى الأسباب التي كانت وراء الانتشار المكثف والسريع للحركة الإصلاحية في أوروبا كما أشار كتاب «موسوعة تاريخ أوروبا العام»، وهي:

١ ـ احتياجات المؤمنين الروحية:

«ما يمكن في البداية تسميته (التدين الحديث)، هو الحاجة الماسة عند المؤمنين ـ في نهاية العصر الوسيط ـ إلى دين أكثر خصوصية، أقل إشكالية، وأقل طقوسية. حتى إن الحركة وجدت جذورها في إيطاليا، بين ظهراني بورجوازية المدن الكبرى التجارية، وسرعان ما انتشرت في الأراضي المنخفضة»[١].

وهذه الشكوى مكررة في الساحة العامة في مجتمعاتنا الإسلامية فالكثير من العامة لا يجدون خطاباً روحانياً مناسباً لثقافتهم ومستوياتهم المعيشية المختلفة، فغالباً ما يتم التخاطب مع الجميع بلغة وعظية واحدة وأسلوب وعظي واحد أيضاً! وعلى الرغم من اهتمام دعاة مأصلين شرعياً بهذا الجانب مؤخراً إلا أنهم ندرة ولم يشكلوا حتى الآن ظاهرة تملأ الساحة ووسائل الإعلام المختلفة، لكنها في العموم تبشر بخير.

---

(١) موسوعة تاريخ أوروبا العام: ٢/ ٢٧٦.

إن تغير ظروف الأحوال المعيشية للناس سياسياً واقتصادياً واجتماعياً تقتضي تجديد الخطاب بالقدر الذي يعالج أوضاعهم ويشارك في تلمس همومهم ويقدم الحلول لما يعيشونه من أزمات، فمن غايات إنزال الشريعة أن يُعبَّد الناس لرب العالمين في جميع الظروف، وأن يقوم حملتها بالدفاع عن حقوق الناس المغتصبة ومصالحهم المستلبة، فقد وقف الأنبياء والرسل أمام استعباد الخلق أو التصرف في حياتهم بالوكالة عن الله أو بدعوى الوساطة بينهم وبينه، وأمام مظاهر الاستبداد والغش والانحلال وتوظيف الدِّين لصالح الشرفاء وأكل أموال الناس بالباطل والظلم والعدوان.. وعندما يغفل العلماء دورهم في مواجهة هذه المظاهر فإن من المتوقع بروز من يقوم بهذا الدور تحت ضغط الواقع جاهلاً كان أم من أنصاف المتعلمين، وعندها تأتي الحلول بأدواء جديدة ويصبح العلماء أمام مواجهة فساد قديم وآخر قادم!

ليس المطلوب من العلماء أن يتخلوا عن جانب التعليم والتربية والدعوة والفتيا، بل المطلوب أن تصب جميع هذه الأمور في معالجة الواقع بحيث لا يخرج الناس عن العبودية لله، حتى ولو كلفهم ذلك التخلي عن بعض الأدوار التقليدية التي قد يملها الناس مع تبدل الظروف واشتداد الأحوال، الأمر الذي قد يشعرهم بغياب العلماء عن الساحة ودورهم في الإصلاح، وهذا ما حدث في أوروبا!

٢ ـ التبرئة بواسطة الإيمان (الإرجاء):

حيث أصبح «الإيمان ضرورياً وكافياً للخلاص والنجاة من عذاب الأبدية، ولا جدوى من الأعمال لأنها لن تفيد في شيء. لهذا وقف (لوثر) ضد (استخدام الغفرانات) و(الحال أن مذهباً

لاهوتياً مبنياً على التبرئة بالإيمان يتطابق مع حاجات ملايين النفوس القلقة). لقد راح هذا اللاهوت يناوئ مسيحية قائمة على الطقوس والممارسات، بيد أن (الإيمان الحديث) أثر في نفوس النخبة وأوغل داخل الكنيسة الرومانية»[١].

وشبيه بهذه المسألة لدى بعض الإسلاميين ـ حسب تعبير أبو الحسن الأشعري ـ غلوهم وتشديدهم فيما ينبغي أن يكون عليه إيمان عامة الناس، كما هو الحال لدى فرق المتكلمة والمتصوفة والتشيع بل وحتى بعض المنتسبين لأهل السنة والجماعة! وقد سبق لعلماء الإسلام أن انتقدوا هذا المسلك المغالي بتكليف العامة فوق طاقتهم من الفهم والإيمان والعمل وشنعوا على المذاهب المثالية كمذهب الخوارج وعلى امتحان العامة فيما لا يبلغه إدراكهم عادة.

غير أن طرفاً أخر يأتي لإحالة الإيمان إلى مجرد (التصديق القلبي والمعرفة العقلية) ويجعل العمل شرط كمال إن تخلف لا يضر تخلفه صاحبه حيث إنه بهذا الإيمان المعرفي القلبي (الخفي) مؤمن في الدنيا وناج في الآخرة مهما مارس من قول أو عمل! وهذا ما يسمى بمذهب الإرجاء، الذي انتشر في عالمنا الإسلامي وانعكس في واقع المسلمين تخلفاً وجهلاً بالدين[٢].

٣ ـ الإنسانيون:

الذين شرعوا «بقراءة الكتاب المقدس بطريقة ساذجة سطحية،

---

(١) موسوعة تاريخ أوروبا العام: ٢/٢٧٦.

(٢) انظر في هذا الشأن كتاب الشيخ الدكتور سفر الحوالي: (ظاهرة الإرجاء في العالم الإسلامي).

مستندين في أفضل الحالات بعلوم راهب الكنيسة، القديس جيروم والقديس أوغسطين»[١].

إن لأي دين مجددون يبعثون روح الالتزام به ويحيونه في نفوس الناس ومجتمعاتهم من خلال تقديم اجتهادات تلائم أحوال الناس وظروف الوقت، إلا أن تأثر البعض بهؤلاء المجددين وتعظيمهم لهم وحبهم إياهم يحدث حالة من الخلط بين اجتهادات هذا المجدد وبين الأصول التي انطلق منها، وبين شخصه وحقيقة الدِّين، فتتماهى الأفكار مع الذوات والنصوص مع التأويلات الحادثة! ويصبح المذهب عند هؤلاء هو الدِّين ذاته! وتستحيل اجتهادات المجدد نصوصاً تقيد من بعده وتحدُّ من يليه! فيجمد الفقه ولا يجد الناس في العلماء من يقدم لهم حلولاً للواقع لا تخرجهم عن الدين ولا تحرمهم من متاع الدنيا والطيبات من الرزق، فترفع عنهم الحرج وتحقق لهم السعة والرحمة! وعندها تكمن الكارثة ويأتي من يحطم الدين كله أصوله ونصوصه واجتهادات رجاله!

والإنسانيون كانوا جزءاً من هذا الانفكاك من الكنيسة، وتُعدُّ الحركة الإنسانية من أبرز الحركات الفكرية التي أثرت في مسألة الإصلاح الديني في أوروبا، فقد سحبت الاهتمام الفكري والمعرفي من المجال الديني إلى المجال البشري، حيث كان غالبية رواد الحركة من العلماء والأدباء والفنانين الذين عاشوا في بلاط الحكم، وملُّوا من مواعظ (رجال الدين) وأفكارهم التقليدية المتكررة منذ

---

(١) انظر في هذا الشأن كتاب الشيخ الدكتور سفر الحوالي: (ظاهرة الإرجاء في العالم الإسلامي): ٢/ ٢٧٩.

مئات السنين، كونها لا تعطي حيزاً للتفكير وتتعامل مع جميع الأمور بالقطعيات والتعاليم المفروضة؛ فـ(رجل الدين) في الفكر الكنسي معصوم وتجب طاعته، الأمر الذي دفعهم للبحث والتنقيب في التاريخ اليوناني والروماني القديمين بغية استلهام فلسفة إنسانية للحياة لا تمت إلى الدين بصلة مع تحقيقها قدراً من العمران والمتعة والنماء!

وقد قادهم البحث في تاريخ اليونان والرومان لدراسة كل جوانب حياتهم الفكرية والأدبية وإعادة إخراجها للناس. وبدأ التركيز على النظرة إلى الجانب الإنساني في الحضارة باعتباره الجانب الأهم في حلقة الطبيعة والآلهة، وكونه الجانب الأكثر فهماً!

وفي بداية الأمر برر الإنسانيون أخذهم عن فلاسفة اليونان والرومان بأن كتبهم تحتوي على الحكمة والعلم والعقلانية الصائبة، على الرغم من وثنيتها، لكن رجال الدين انزعجوا من هذا التصرف واعتبروه خروجاً على المسيحية، الأمر الذي جرَّ عليهم صراعاً استمر عدة قرون!

وكان الإنسانيون في أثناء بحثهم يعاصرون الحروب الدينية في أوروبا، تلك الحروب التي أهلكت الحرث والنسل، وهو ما دفعهم إلى تعظيم النزعة (الفردية) في مقابل (عبودية الكنيسة)، ومن ثمَّ الخروج من سلطة الدين باعتبارها معيقاً عن متع الدنيا؛ وإلى العودة بالإنسان إلى قيمه (الإنسانية) باعتبارها المطلقة والأعلى، لأن الإنسان أرقى الكائنات على الإطلاق ـ حسب رؤيتهم؛ وقالوا بأن

كل معرفة لا تهدف إلى الرفع من شأن الإنسان أو ترقيته لا جدوى لها ولا لزوم. وراحوا يحلمون ببناء مجتمع يختلف عن مجتمع القرون الوسطى المستكين لأقوال الكهنة والمستسلم للمقادير والظروف، فهاجموا الكتب الدينية ووصفوها بـ(الكتب الصفراء)؛ وتأثر بهم الكثير من الناس، فقد كان الأمراء يدعمونهم مادياً ومعنوياً، ويحمونهم من ضغط الكنيسة، وكانت كتبهم تطبع وتروج!

وانطلقت هذه الحركة من إيطاليا إلى مختلف أنحاء أوروبا؛ ومن تحت عباءتها ظهرت (الإنسانية الملحدة) عقب الصراع الديني الدامي بين الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية، والذي ذهب ضحيته مئات الآلاف من الأوروبيين، كما ظهر تحت تأثيرها تيار من رجال الدِّين يمثل (النزعة الإنسانية المتدينة)!

وهكذا توجه التدين في أوروبا إلى أن الإنسان ـ وليس الله ـ ينبغي أن يكون مصدر المعرفة، وأن الفكر الإنساني ـ لا الوحي الرباني ـ هو المرجع الذي يرجع إليه الإنسان في النظر إلى أمور حياته ومتطلباتها، وإلى أن الفكر والعمل الإنساني يجب أن يتجها إلى الحياة الدنيا ومقتضياتها لا إلى الآخرة ومقتضياتها[١].

٤ ـ تدخل السلطة:

لقد كان التركيب الهرمي للسلطة في أوروبا ـ في ذلك الحين ـ والقائم على إمبراطوريات وممالك وأسر حاكمة ونبلاء.. مهيئاً

(١) انظر: العلمانية للشيخ الدكتور سفر الحوالي؛ ومدخل عام إلى النزعة الإنسانية، لجيم هيريك، المختص بدراسة الفلسفة الإنسانية منذ بداياتها في عصر النهضة وحتى اليوم.

لصراع على الثروات والسلطة تقوده طبقة الأمراء والنبلاء.

وقد «اضطر لوثر ـ بسبب حرب القرويين ـ إلى التصلب في مواقفه، وإزاء حالات الفوضى المستشرية آثر قيام سلطة تمارسها سلطات مسيحية، وأعطى الأمراء سلطات الوصاية والإشراف، فقدم بذلك هدية رائعة لأسياد الإمبراطورية المقدسة الذين امتلكوا منذ ذلك الحين حق مراقبة كنائسهم، وأصبحوا من فئات الأساقفة، مرسخاً التحالف بين الأمراء الإقليميين والمذهب الجديد»[1].

لقد «كانت طبقة النبلاء مصممة على الاستئثار بخيرات الكنيسة، في حين كان مجتمع الأرياف يرى في انتصار الإصلاح نهاية الاستبداد الإقطاعي وفجر عالم جديد»[2].

من هنا تركز المذهب الإصلاحي في فرنسا: «بصورة خاصة في المدن، بين ظهراني البورجوازيين والفنانين، وجماعات الكنيسة، ورجال العلم والمعرفة»[3].

إذن فعالم السياسة مهما كان شهوانياً ـ أو علمانياً ـ لا يغيب عن ساحة الدين والصراع فيها، محاولاً توظيف طاقاته لصالح طرف على آخر، وهذا ما أثبته التاريخ في كل الصراعات والانقلابات وتحولات الدول، لأنه في الحقيقة يقبض بشماله ما أنفقت يمينه!

---

(1) انظر: العلمانية للشيخ الدكتور سفر الحوالي؛ ومدخل عام إلى النزعة الإنسانية، لجيم هيريك، المختص بدراسة الفلسفة الإنسانية منذ بداياتها في عصر النهضة وحتى اليوم: ٢/ ٢٧٢.

(2) المرجع السابق: ٢/ ٢٧٥.

(3) المرجع السابق: ٢/ ٢٨٨.

والذي يظن أن تحركه بعيداً عن السياسة دينياً واهم!

لذا أكد علماء السلف على أن يكون العالم بصيراً بما يفتي، وأن لا ينطق في زمن الفتنة بحق يوظف في باطل! وأن لا يكثر الدخول على السلاطين - بعد أن فسد شأنهم - حتى لا يكون في دخوله عليهم فتنة للعامة أو توظيفاً من الحاكم!

إن السياسة والدين شأنان متلازمان فكليهما يعتني بشأن العامة، الأول من منظور السلطة والثروة والآخر من منظور العبودية لله وتحقيق مصالح الخلق على مبدأ لا ضرر ولا ضرار، ورضى الساسة المستبدون عن رجال الدِّين أو رجال الدِّين عن الساسة المستبدون في أي مجتمع وأي ديانة يعني بالضرورة أن الناس سيشكلون مستقبلهم بعيداً عن رجال الدِّين وأنهم سيبحثون عن بدائل لهم يقودونهم ضد الاستبداد ويلبي لهم حاجتهم للتدين! وهنا يأتي دعاة الإصلاح الديني وقد يمثلون حينها خطاً أصيلاً وقد يمثلون خطاً متطرفاً. نحو الانحلال أو نحو الغلو!

خاتمة

إن مجتمعاتنا الإسلامية اليوم تعيش ظروفاً استثنائية وأزمات حادة، وهي مشبعة بموروث تاريخي مثقل بالمذاهب والمدارس الفكرية المختلفة، كما أنها مشرعة النوافذ على الخارج أكثر من أي وقت سبق، تطَّلع على ما هنالك وينفذ إليها الآخرون، وتملك قنوات الاتصال والتواصل معه، ولم يعُد التغيير الداخلي شأناً مستقلاً صرفاً خالياً من تأثير الخارج وإن كان من واقع التقليد في أقل أحواله.

إن «التدين» كما أسلفنا حالة يصنعها الأفراد والمجتمعات في ظل ظروفهم وثقافتهم وأحوالهم، وكلما توفرت الظروف الطبيعية والثقافة الأصيلة والأحوال الموضوعية كان الـ«تدين» أقرب للدين

الصحيح، وكلما كانت هذه الظروف والثقافة والأحوال في أسوء مستوياتها جاء ال«تدين» بعيداً عن الدين الصحيح!

ف«التدين» وليد بيئته بالدرجة الأولى، لذا فإن أهم ما يجب أن يقوم به العلماء هو توفير البيئة السليمة لهذا التدين، سياسياً بإبقاء الحاكمية المطلقة للشريعة، وفكرياً بإغلاق باب البدع والمحدثات وفتح باب الشورى والاجتهاد، واجتماعياً بكسر كافة قيود العادة والتقاليد التي تقف عائقاً أمام تدين الناس وخضوعهم للشريعة، ولا يجوز لهم الانسحاب عن هذه الميادين تحت أي ذريعة من الذرائع، ولا مانع أن يتم تخصص كل فريق منهم في جانب من هذه الجوانب لسد الثغرة على الأمة فيها، مع تكامل الجميع، وتواصيهم فيما بينهم بالحق، دون أن يترك الناس هملاً فيها، لا رأس لهم في الأمر ولا مرجع. وهناك محاولات جادة اليوم لتغييب دور العلماء أو محاصرته في جوانب ضيقة، اعتادها الناس، ولا تشكل محور التأثير فيهم؛ بعضها بجهود محلية وأخرى بجهود أجنبية، وتأخذ إطار إشراك الناس جميعاً في الخوض في مسائل الشريعة تحت مبررات مختلفة. . ليس أكثرها ترويجاً الديمقراطية!

عودة الأمة إلى دينها أصبح أمراً ملموساً على كافة المستويات، وهذا يفرض على الدعوة الإسلامية استيعاب هذا الزخم الجماهيري بشيء من التجديد مع التزام الثوابت، وإغفال هذا الإقبال من الناس دون توجيه وخطاب يلامس احتياجاتهم وهمومهم وتطلعاتهم بالوسائل التي توصل الخطاب إليهم بجاذبيته وبلاغته اللفظية والمعنوية = يمثل مشكلة خطيرة تترك الناس صيداً ثميناً يتخطفهم دعاة الضلالة والأهواء.

كما أن تصدُّر البعض لهذه الجماهير بالخطاب، ووقوعه في الخطأ مهما بلغ، يوجب شكرهم من جانب صدقهم وبذلهم وتضحيتهم، والإقرار بالإيجابيات التي تميزوا بها، ويوجب في الوقت ذاته مناصحتهم وإرشادهم حتى لا تمثل أخطاؤهم نقطة انحراف تبعد عن المسار، وعلى هؤلاء المتصدرين أن تتسع صدورهم لهذا النصح خاصة وأنهم يمثلون في نظر الجماهير الرمز (القدوة)، مع ضرورة أن يفرقوا بين بث روح التدين والالتزام وبين دور الفتيا وتعليم الأحكام وإقرار التصورات الإسلامية الكلية!

ولعل هذه السطور كانت محاولة للفت نظر العلماء ورموز «التدين الجديد» إلى هذه الحقيقة، ربما أنها جاءت قاسية في بعض ألفاظها، وإن لم تكن قصداً، وربما خانت العبارة كاتبها في بعض السطور! أو تجاوز في بعض الأحكام عن غير قصد! لكنها في الختام محاولة في أن لا يؤثر «التدين الجديد» على ثقافتنا الإسلامية بتمرير ثقافة التغريب في مجتمعاتنا، في لحظة ضعف عابرة تزول بالمقاومة الفكرية والمادية لا بالمزيد من الاستلام على الصعيد الشعبي بعد عهود من الاستسلام الرسمي.

والموضوع مطروح للنقاش بين علماء الأمة ومفكريها، ولكن قبل أن ينتهي موعد الإجابة عليه، فلكل زمان أسئلته المتعلقة به لو كُنَّا نعقل.

اللهم اجعل في هذا المجهود نصحاً للإسلام والمسلمين واكتب له القبول واعف عنا فيما أخطأنا فيه واجعله خالصاً لوجهك الكريم.. آمين.

المراجع

الكتب:

١ ـ العلمانية: الشيخ الدكتور سفر الحوالي.

٢ ـ ظاهرة الإرجاء في العالم الإسلامي: الشيخ الدكتور سفر الحوالي.

٣ ـ الموسوعة العربية الميسرة: ط٢، ٢٠٠١م، إصدار دار الجيل بيروت، بترخيص من الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية.

٤ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ط٤، ١٤٢٠هـ، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

٥ ـ موسوعة السياسة: المؤلف الرئيسي د. عبد الوهاب الكيالي؛ ط٤، ١٩٩٩م، إصدار المؤسسة العربية للدارسات والنشر.

٦ ـ أوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر ـ ضمن (موسوعة تاريخ أوروبا العام): إشراف: جورج ليفه، وورلان موسنييه، ط ١٩٩٥م، منشورات عويدات، بيروت.

المقالات المنشورة على النت، وغالباها من موقع (إسلام أون لاين):

١ ـ المتدينون الجدد من الـ«تيك أواي» إلى الـ«وان كليك»: لأحمد زين.

٢ ـ تونس.. الفضائيات البديل الأمثل للدعاة: ل د. خالد شوكات.
٣ ـ أثر المتدينين الجدد على الحركة الإسلامية: لأحمد زين.
٤ ـ المتدينون الجدد وفقه القص واللصق: لأحمد زين.
٥ ـ عمرو خالد.. الطبعة الإسلامية لليبرالية الجديدة!: لحسام تمام.
٦ ـ الأخ جيمنستيار.. داعية أندونيسي «نيو لوك»!: ترجمة وإعداد: نهى الإبياري.
٧ ـ «الدين اللذيذ».. لغة الدعاة الجدد!: الدكتور صلاح عبد المتعال الخبير الاجتماعي المصري، المستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر، وهو من المتابعين والمراقبين لهذه الظاهرة، في حوار له مع موقع «إسلام أون لاين»، إعداد: صباح هاشم.
٨ ـ الشباب المتدين بين عمرو خالد وعمرو دياب!: لعاصف بيات.
٩ ـ تدين نيولوك.. إسلام البورجوازية في مصر!: لحسام تمّام وباتريك هايني.

الفهرس